

www.kotobarabia.com
حقيقة الغرب
بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية
www.kotobarabia.com
د. مصطفى عبد الغني

حقيقة الغرب

بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية

د. مصطفى عبد الغني

إهداء

إلى

سليمان الحلبي

شهيد الحملة الفرنسية

وإلى

أطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا و...

وانتفاضة الأقصى

شهداء الحملة الأمريكية

فهرس

لزوم ما يلزم

ها نحن نحتفل هنا – والآن– بعام الجلاء (١٨٠١ – ٢٠٠١)

بعد أن خدعونا طويلاً

بعام الغزو وضراوته (١٧٩٨ – ١٩٩٨)

هذه حقيقة الغرب وأقنعته أيها السادة..

مقدمة

وجوه كثيرة للغرب..!؟

الوجوه الكثيرة، حقيقية.. بشعة وقبيحة نلتقي بها منذ عرفنا هذا الغرب حين جاء على مدافع بونابرت (وليس مطبعته كما يزعم البعض – وما أكثرهم–) في نهاية القرن الثامن عشر، وتوالت في صور شوهاء حادة جافة بدت في ذروة اكتمالها مع نهاية القرن العشرين حيث نعيش جميعًا محاولة الغرب لإعادة رسم خارطة الكرة الأرضية بطريقته الخاصة. بطريقة اقتصاد السوق.

ليس بطريقة الحضارة أو الديمقراطية أو حقوق الإنسان.. إلخ كما يزعم.

وتتعدد الوجوه..

فهذا هو وجه (النظام العالمي الجديد) بيتعبير جورج بوش عقب حرب الخليج الثانية ٩١/٩٠م للهيمنة على العالم و"أمركته".

وهذه هي لوحة (نهاية التاريخ) بتعبير فرانسيس فوكوياما حين حاول أن يراوغنا من شرفة وزارة الخارجية الأمريكية بألوانه وتنظيراته البراقة.

وهذا هو "كروكي" (صراع الحضارات) لصمويل هنتنجتون الذي خرج لأول مرة من "فورن أفيرز Foreign Affairs" مجلة الشئون الخارجية الأمريكية قبل أن يعود العام الماضي – ١٩٩٦– لتجسيد خطوطه في كتاب ضخم حاول به التأكيد على وجود العدو الحقيقي للغرب وهو كما رآه ونظر له – في الإسلام.

إنها وجوه كثيرة دالة ترسم خلفها جميعًا صورة هذا الغرب الذي يحاول أن يخدعنا، فيزيد من قبضته علينا، مرددًا عباراته التي لا تخلو من معنى (العولمة) وحوار الحضارات و(الكونية) و(الكوكبية) و(الحداثة) و(ما بعد الحداثة).. إلخ.

الغرب الجزار.. نعم.. إنها حقيقة الغرب كما نراها على غلاف هذا الكتاب.. الجزار الذي لا يتردد في استخدام (الخازوق) مرات كثيرة في علاقاته بأبناء الدول الأخرى من المعترضين أو المناوئين لحكمه وإرهابه، هي تأتي كلها على شكل شهادات على حقيقة الغرب.

ولنقرأ هذه الشهادات بأعصاب قوية، لنرى، حقيقة الغرب كما يجب أن نعرفها.

الشهادة الأولى:

حين حمل الغرب الفرنسي سليمان الحلبي المناضل الكبير ابن سوريا إلى الخازوق في مصر المحتلة (وهو ما رسموه لنا بيد فنان فرنسي على صورة الغلاف)..

كان المناضل العربي قد اغتال أحد جزاء الغرب – كليبر – مدافعًا عن كرامة الأمة العربية، وفي الساحة التي تم فيها حرق يده وتثبيته في الخازوق وقف ضابط فرنسي كان شاهد عيان عما حدث، وقال بالحرف الواحد، مما هو مسجل في الوثائق الفرنسية عن سليمان الحلبي:

(... بُطِحِ أرضًا وشق شرجه وأدخل فيه الخازوق وربطوا ساقيه وفخذيه ويديه وجسمه.. ودفع الخازوق.. وهو ثابت..).

الشهادة الثانية:

حين اعترف المحتل البريطاني في مصر – إبان الاحتلال البريطاني لها– بأنه قد استخدم الخازوق بشكل رسمي وشرعي ضد المواطنين العرب في مصر من العزل؛ يقول بلانت أحد الإنجليز في مصر بالحرف الواحد:

(... بموجب مرسوم ١٨٩٥ م يمكن الحكم بالموت على أي مصري وإعدامه صلبًا أو على الخازوق لمجرد أنه امتعض من اعتداء جندي بريطاني على عرض زوجته أو أنه حال دون ذلك..).

الشهادة الثالثة:

وهذه الشهادة لها أهميتها القصوى إذ إنها تأتي من أحد المثقفين الغربيين المهمين فضلاً عن أنها تتحدد حول النموذج الغربي – كأبشع استعمار– في سلسلة الاستعمار الغربي، إن نعوم شومسكي في كتابه المهم "ماذا يريد العم سام" What Uncle Sam Really Want حين يتحدث عما يريده العم سام من الشعوب المغلوبة على أمرها، وماذا سنفعله للحفاظ على المصالح المالية الأمريكية، فإنه يجيب في كتاب كامل بأنه:

(... يستخدم وسائل العنف من تهشيم الأطفال الرضع، أو تعليق النساء من أقدامهن، وقطع أثدائهن، وسلخ جلودهن أو قطع رؤوس الضحايا – يضيف – ووضعهم على خازوق..)

هذا هو كل ما يقدمه الغرب.

وهذه ثلاثة شهادات (لحقيقة الغرب)، وهي حقيقة تعود على كراهيته العميقة لنا، إلى درجة استخدامه لأبشع آلات التعذيب ومعاملته لنا بتحيز تام سواء في استخدام الخازوق بشكل

مباشر (كما هو مع سليمان الحلبي، أو الفلاح المصري الأعزل..) أو بشكل غير مباشر – كما سنرى من فصول هذا الكتاب.

إنه (الخازوق الغربي)..

إن الخازوق يستخدم كثيرًا، سواء في إصرار الغرب أن تكون التنمية الاقتصادية – تنميتنا– تابعة له تمامًا (ولدينا عشرات من الاتفاقات ليس آخرها الجات، أم في استخدامه معنا لكل صنوف الإرهاب، حتى أصبح – أي الإرهاب– بشهادة الغرب نفسه– صناعة غربية، أو في تزويره للتاريخ بدأب ووقاحة رغم ظهور عدد من مؤرخي (المدرسة الجديدة) في الغرب، أو ظهوره السافر خاصة في الفترة الأخيرة عبر العنصرية الغربية – خاصة في يمينها المتعصب– مظهرًا معاديًا تمامًا لنا (ولنراجع على سبيل المثال تشويه مقدساتنا الإسلامية ورسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) بالرسومات الكاريكاتورية أو تمزيق القرآن أو استخدام آياته في الملابس النسائية الداخلية!!، أو النيل من السيدة مريم وتصويرها تصويرًا عنصريًا.. إلخ).

لا يستثنى من هذا عسكري مثل اللورد اللنبي الذي كان – كما تقول المصادر الغربية– يقرأ في كل ليلة في كتابين أحدهما الإنجيل.

أو كاتبًا مدنيًا وأستاذًا جامعيًا مثل برنار كما تقول أبحاثه المعمقة، وخداعه للكثير منا أنه يحاول أن يعيد التاريخ العربي بصيغة غربية أو صهيونية خالصة.

نجد هنا في إسرائيل كما نجده في الغرب (وهي إحدى طلائع المركزية الغربية المنغرسة في اللحم العربي).. فإسرائيل ليست غير نتاج للمركزية الغربية في سياقها التاريخي، ولو لم يأت الصهاينة لاحتلال فلسطين، لأتى الغربيون أنفسهم، والأسماء كثيرة والذرائع عديدة – لاحتلال فلسطين العربية.

ومن يستريب ليتذكر معنا (ويمضي هذه الأيام نصف قرن على النكبة) مجازر دير ياسين وكفر قاسم إلخ.

ومن يستريب يتذكر معنا أن أطفال (قانا) وأبناء (النبطية) وقبل ذلك أبناء (بحر البقر) الذين ذُبحوا بأسلحة أمريكية، وبصمت أمريكي خالص، والوثائق موجودة ومعلنة في أكثر من عاصمة غربية ولا يحتاج للبحث أو الدهشة.

وحين نتذكر "دير ياسين" أو "قانا".. والبقية ستأتي ولن تتوقف – يجب أن نتذكر، بنفس الشكل، كل المذابح العربية الأخرى من قبل الصهاينة أو الأمريكان التي يستخدم فيها الخازوق:

إما بالشكل السافر كما عرفنا في الحملة الفرنسية.

أو الشكل غير مباشر كما عرفناه – ونعرفه في ممارسة أحدث أسلحة الترسانة الغربية، وهي الأمريكية في عصرنا الأخير.

نجد هذا في الماضي.. كما نجده في الحاضر.

نجد هذا في الحاضر.. كما سنجده في المستقبل.

نجد هذا في بلادنا ضدهم.. أو نجد هذا في بلادهم ضدنا.

إنها حقيقة الغرب التي لا يجب أن.. يخدعنا لحظة باسم المعلوماتية.

إنه (اقتصاد السوق) وليست الحضارة الغربية بأية حال.

* * *

بقى أن أشير إلى أن هذه الوجوه أو الفصول التي احتوتها هذه السطور حاولت أن أكتبها في الواقع المعاصر، وعبر الاسترشاد بنبض هذا الواقع الحي في نهاية القرن العشرين.

وكان سبيلي إلى ذلك التماس جملة من أفكار الجماعية Aqelecism كأحد أدوات البحث؛ إذ حاولت الاسترشاد بأفكار الغالبية من القراء والمعلقين المجاورين لنا من شتى الفئات الثقافية.. فهذه الفصول كانت قد نشر أغلبها في صورة مقالات بجريدة الأهرام بين ربيع صيف ١٩٩٨ م إبان اشتعال أوجه الخلاف بين المؤيدين للاحتفالية بمرور مائتي عام على مجيء الحملة الفرنسية (وقد اتخذت في البداية شكل اتفاق ثقافي رسمي)، وبين المعارضين لها.

ورغم أن الحوار الحاد كان يعكس الخلفية الثقافية والسياسية، فقد جهدت منذ البداية أن أدرس الحملة الفرنسية في ضوء الحاضر، وليست جسمًا منقطعًا عن بقية الأجزاء العضوية للتاريخ المصري بأية حال.

وقد يكون من المهم أن أشير إلى أن ما كان ينشر في "الأهرام" كنت أستعيده في وقته وأحاول إعادة كتابته من منطلقات كثيرة كانت تحتمها الأحداث، وتغذيها ردود الأفعال ويؤكدها الفعل الغربي.

أردت أن أرى الحاضر في مرآة التاريخ.

واعترف أنني لم أهتم – منذ البداية– بالموقف الرسمي، أو الموقف المضاد له بقدر ما اهتممت برأيي في هذا المجال كدارس (حصلت على الدكتوراه في التاريخ الفكري) كما أن لي جهدًا سابقًا حول علاقة الغرب بالشرق في كتاب صدر عن الهيئة العامة للكتاب في ربيع

١٩٩٤ م بعنوان (الجبرتي والغرب/ دراسة حضارية مقارنة)، لكني – وهذا استطراد للاعتراف– اكتشفت أن الرأي العام الجماعي يقترب مني، أو اقترب منه، ولم يلبث – حين بدأت هذه الكتابات– أن أقترب أكثر ليحتل مساحة شاسعة في فكري، لا لكثافته وتردده فقط، وإنما لإيماني أن الكاتب لا بد أن يكون معبرًا عن الرأي العام، معارضًا للسائد والمتخلف.

ومن هنا، وجدتني أقف في معسكر واحد مع هذا العقل الجمعي الذي تفهمته وحاولت تمثيله على قدر الإمكان، ومن ثم – وهو اعتراف آخر– اكتشفت أنني لا أقف في معسكر العديد من المثقفين الذين يجب أن يتخذوا مواقف واعية للتعبير عن شعوبهم، وهو ما توغلت في اكتشافه أكثر، حين وجدت عنوانات مقالاتي تحمل ألفاظًا من نوع (رطانة المثقفين) تعبيرًا عن الفكر الذي يحاول أن يعبر عنه غالبية من المثقفين.

كان (.. المسيخ الدجال)، وهو عنوان، تعبيرًا عن هذا المثقف الذي اقترب إلى حد بعيد من هذا الكائن الذي يتحدثون عنه في الماضي رابطًا بينه وبين المثقف المعاصر.

وكان هذا جزءًا من اكتشافي لأنماط من المثقفين في عصر (العولمة) في نهاية القرن العشرين لم أكن لأعرفهم قط قبل هذا، لم أعد أعرف نمط المثقف المتمرد أو الصامت، وإنما هو نمط آخر من المثقفين اقترب من مثقف ينتصر لاقتصاد السوق أكثر من الهوية الثقافية (وقد أسهبت في هذه الأنماط في بحث ألقيته في ندوة: العولمة) التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة إبان هذه الفترة.

كان عدد كبير من المثقفين يرون في الحملة ملمحًا يغاير الصورة العامة، لم يدركوا – قط– أن الحملة الفرنسية لم تكن غير أحد آليات المركزية الغربية في القرن الثامن عشر، ولم يدركوا – قط– أن المركزية الغربية ما زالت تجد في عدوها في القرن العشرين (غالبًا في الشرق).. عدوًا أزليًا تاريخيًا – وهو مفهوم رددته مارجريت تاتشر (رئيس وزراء إنجلترا السابقة) عقب سقوط الاتحاد السوفيتي في نهاية الثمانينيات وهي تشير إلى الإسلام.

ومن هنا، حاولت – فيما أزعم– التعبير عن الأفكار الجماعية أكثر من التعبير الفردي.

لم أحاول أن أحبس قلمي في قمقم التاريخ بقدر ما سعيت إلى القبض عليه في رياح العولمة وآلياتها الشرسة.

وثمة استطراد أستأذن في التوقف عنده هنيهة:

سعيت إلى التماهي مع الضمير الوطني أكثر من الانضمام إلى هذه الجوقة التي راحت تضرب سلامًا جماعيًا للنظام، رغم أن النظام نفسه لم يعين نفسه وصيًا على هذا المثقف أو ذاك.. ورغم أن النظام – وأشهد على ذلك – لم يحاول التدخل في التأثير في هذا

الطرف أو ذاك إبان الجدل الذي دار حول الحملة الفرنسية (ومن المهم أن أشهد أيضًا أن النظام لم يحاول – وهي تجربة شخصية- التدخل قط بيني وبين التعبير عن الاشمئزاز من المركزية العنصرية والموقف الأمريكي، وسرد مرجعياته، ومواقفه القبيحة منا، كما لم يحاول أن يؤثر في هذا الطرف أو ذاك في قضايا كثيرة كقضية التطبيع مع إسرائيل.. وقضايا أخرى ليس مكانها هنا).

المهم أن المثقف الفرنسي والمتفرنس كان ملكيًا أكثر من الملك.. كان يدافع عن دور لم يطلب منه فيه أن يكون مؤيدًا له.

ونترك الاستطراد إلى ما بعده.

لقد سعيت إلى التعبير الذاتي على اعتبار أن الفكر الفردي غالبًا ما يكون تعبيرًا عن أفكار الجماعة وهو ما نلاحظه في هذه الفصول التي لم أتردد في قبول عديد من الآراء والرسائل فيها أو الوثائق التي كانت تأتيني من المثقفين والقراء على شتى فئاتهم، ثم أدخل حوارًا معها بالسلب والإيجاب.

لم أقتصر على وجهة النظر المعادية للغرب بقدر ما تقبلت وجهة النظر الأخرى، المغايرة لرأيي، التي رأت في الحملة الفرنسية قائدة حضارية، ومن ثم، فائدة في تطوير المد التاريخي لنا وأثبت هذا في وجهات النظر سواء في المتن أوفي الملاحق بعناية فائقة.

* * *

وحين يأتي الحديث عن الملاحق، فإنني أدافع عن وجهة نظري التي دعتني إلى تخصيص هذا الجزء لأضع فيه كل ما يضيف إلى الفصول لتأكيد الحدث، إيمانًا مني أن عصر الصورة لا يمكن أن يتراجع ثانية، وإن الصورة أصبحت أكثر المؤثرات التي تسهم في تكوين الرأي العام، ولو استطعت التعبير أكثر بالصور والوثائق لفعلت. أما عن المصادر الأساسية أن المراجع التي عدت إليها، فإنها أكثر مما أستطيع إثباته هنا، ومن ثم سأكتفي بالإشارة إليها في المتن، على أمل أن الإشارة تعيد – لمن يريد- المرجعية العلمية أو التاريخية، خاصة أنني حرصت على ألا يكون في ذكر هذه المراجع أو ذاك موضعًا للبس، لقد كانت المرجعيات التي ذكرتها من الوضوح بحيث لم أكن قلقًا بشأنها، كما كانت المجتزئات من الدقة بحيث عبرت عما أريد.

بقى أن أشير إلى ملاحظة لا أعرف مدى أهميتها في هذا السياق، وربما يكون في ذكرها إفادة في الاقتراب أكثر مما أريد.

فقد كان صاحب هذه السطور (شاهد عيان) للكثير منها سواء لاشتراكه في الحرب ضد إسرائيل لسنوات امتدت ما بين ١٩٦٧، ١٩٧٣، أو سواء لاشتراكه في عديد من المؤتمرات أو الندوات أو المهرجانات التي أقيمت في عواصم عربية كثيرة وقد كان مشاركًا لها في عديد من العواصم بحكم عمله ككاتب وكناقد عربي من مصر.

وقد حرصت في هذا كله على تسجيل ملامح الوجه الغربي القبيح لهذا الغرب عبر تسجيل الأحداث وتتبعها وإعادة النظر فيها مثل (جبرتي) القرن الماضي حين وقف في مفترق ليشهد المنطقة العربية وهي في مفترق الطرق بين ماضي وحاضر، وهي تعاني ما يعانيه من يقف في مثل هذا الموقف من الانبهار والدوار ثم الوعي والفعل.

وأعتقد جازمًا أن عملية تنمية الوعي لديَّ كانت قائمة على المعرفة، فقد أصبحت المعلومات الآن أهم عنصر في إعادة تكوين الوعي ونحن قد دخلنا بالفعل إلى القرن الواحد والعشرين فأرجو أن أكون قد كشفت عن بعض وجوه هذا الغرب القبيح..

أو أكون قد لفت النظر أكثر إلى (الخازوق) ليس (خازوق) سليمان الحلبي فقط، فقد كانت هذه الآلة العنيفة رمزًا لعديد من (الخوازيق) التي يجلسنا الغرب عليها الآن برضانا!! ولا زال.

د. مصطفى عبد الغني

بين نابليون وعبد الناصر

دهشت أن يقرن البعض بين الحملة الفرنسية والدور المصري في اليمن تحت مفهوم "دهاء التاريخ" – مفهوم هيجل.

ومصدر الدهشة ما ذهب إليه من أن المقارنة بين الحملتين – حملة نابليون وحملة عبد الناصر– إنما هما متساويتان في التأثير الإيجابي، وهو ما وصل به إلى نتيجة مؤداها أن "الجيش المصري حين ذهب إلى اليمن قد فعل شيئًا مماثلاً لما فعله جيش نابليون عندما غزا مصر ومعه المطبعة ومئات من العلماء المتخصصين في شتى فروع العلم، والذين جعلوا من تلك الحملة بداية لإعادة اكتشاف مصر.. فقد اصطحب الجيش المصري معه إلى اليمن مئات المدرسين والأطباء والصيادلة والمهندسين فكانت تلك هي بداية وعي الشعب اليمني العريق بالعصر الحديث".

فهو يرى أن هذا هو ما سيحتفظ به التاريخ للحملة الفرنسية على مصر، وللحملة المصرية على اليمن. وهو شيء يستحق على حد قوله الاحتفال.

هنا كانت دهشتي الكبرى، خاصة في استخدام كلمة الاحتفال بعد هذا الجدال التاريخي، فنحن لا نستطيع مقاومة أنفسنا من هذا الشعور بالدهشة الذي يربط فيه بين فرنسا ومصر في فترتين مختلفتين وبتوظيف مفهوم (دهاء التاريخ) للوصول إلى مضمون مغاير فهناك فارق كبير بين دوافع مصر ودوافع فرنسا في كل حالة.

فالواقع أن مصر لم تكن – أبدًا – كفرنسا من حيث نوازعها الإمبريالية الصرفة كما أن اليمن لم تكن – أبدًا– كمصر في الهدف الذي ذهبت من أجله مصر إلى هناك، كذلك فإن مصر – كما يردد الكثيرون الآن– لم تكن جثة هامدة، ظلت هكذا طيلة قرون عديدة حتى جاءت الحملة الفرنسية فبعثت فيها مس الكهرباء ليبدأ البعث من جديد.

هل هذا معقول؟

وهل قدر علينا أن نتحدث دائمًا في قضايانا – بشكل جدلي – يتحول مع الخواطر الشخصية أو التأملات الفلسفية إلى يقين يفسر التاريخ ويغيره أنه لا طريق آخر أمامنا..

* * *

والطريق يسهم في تأكيد أكثر من اتجاه:

– فالحملة الفرنسية كانت استعمارية.

– كما أنها لم تأت إلى مصر الغائبة.

أما أن الحملة كانت استعمارية، فتتفق المصادر التاريخية على هذا فإن الدول الغربية شغلت منذ القرن الخامس عشر بالكشوف الجغرافية التي تحولت إلى صراع استعماري وطوق للسيطرة على الشرق، وخاصة أن الصراع بين فرنسا وإنجلترا كان مبعثه – في المقام الأول- السعي الحثيث للسيطرة الاستعمارية على مصر لموقعها الجغرافي ومركزها الملاحي.

ومراجعة الحقبة التي سبقت هبوط نابليون بحملته على بر الإسكندرية في ٢ يوليو ١٨٩٧ ترينا أن عددًا كبيرًا من الكتّاب والرحالة والقناصلة والسياسيين (منهم سانت بريست وجان بايتيست موريودي توت وسفاري وفولني.. إلخ) كتبوا إلى حكومتهم الفرنسية لاستعمار مصر صراحة، فقد ظل هؤلاء وهم يشيرون إلى ضياع عديد من المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية، ويلحون كثيرًا على أن مصر، ومصر بوجه خاص، هي الميدان الذين تستطيع فرنسا أن تجد فيه حاجاتها التي كانت تستمدها من جزر الأنتيل. فضلاً عن أن (الاحتلال) أو (الاستيلاء) أو (الاستعمار) وهي كلها مفاهيم رددت كثيرًا طيلة القرن الثامن عشر تجعل التجارة بين فرنسا وبقية أقطار الشرق في متناول اليد بدلاً من المشكلات التي تعانيها فرسا في غيبة وضع يدها على هذه البلاد، بل أكد بريست صراحة – وهو سفير فرنسا في القسطنطينية – على أن "الاستيلاء على مصر أمر لا مفر منه لخدمة المصالح الفرنسية".

وقد لاحظ فؤاد شكري في كتابه عن الحملة الفرنسية، أن فكرة الاستعمار وصلت إلى مداها باحتدام الصراع بين فرنسا وإنجلترا، فاقترن الانتقام من إنجلترا بفكرة استعمار مصر، لم ترسل حكومة فرنسا حملتها "للانتقام" من إنجلترا فحسب، بل ولإنشاء مستعمرة فتية في مصر"، إذن كان نابليون يمضي حثيثًا في طريق إحياء "مجد الإمبراطورية الاستعمارية".

فرنسا جاءت – إذن- مستعمرة (بكسر الميم)، فكيف كانت مصر غائبة الوعي؟

عندما نعود إلى الجبرتي – مؤرخ هذه الفترة- يلاحظ أن مصر قبل مجيء بونابرت لم تكن أبدًا بلدًا يغيب فيها الوعي، وتعيش في كساد تجاري أو اقتصادي قط، فهذه الطبقة الجديدة التي تكونت عبر العصر العثماني رغم كل سلبياته كانت من التجار والزعماء وعلماء الدين، كانت مصر في طور التطور، بحكم تطورها الفكري والديني (سوف نعود إلى ذلك أكثر عبر كتابات بيتر جران وعبد الرحيم عبد الرحمن وأندريه ريمون ونيللي حنا التي ترجم عنها د.رؤوف عباس فيما بعد –وهو ما سنعود إليه)، بل لولا التطور الذي كانت تشهده مصر قبل مجيء الفرنسيين ما كان يمكن أن نجد هؤلاء العلماء المصريين وهم يتصدون للحملة ويقاومونها دون توقف.

كانت الحملة الفرنسية إذن تسعى إلى الاستعمار في المقام الأول، كذلك كان نـــابليون، الإمبراطور، يسعى – بوضوح أكده كل من كتب عن هذه الفترة– إلى تكوين الإمبراطوريـــة الاستعمارية الفرنسية في الشرق فهل كان عبد الناصر هو نابليون؟

لنر الإجابة ونحن نستكمل دور مصر في اليمن..

* * *

وعبورًا فوق أحداث كثيرة تشير إلى انقطاع اليمن الطويل عن العالم، فقد كانت اليمن في بداية الستينيات تواصل محاولات الانتفاضة ضد حكم الإمام الذي تحالف فيه التخلف مـــع الاستبداد مع الجهل، وبدت اليمن قطعة من العصور الوسطى.

وعلى هذا النحو، تحرك عبد الناصر لمساندة اليمن فور إعلان الثـــورة فيهـــا، فـــإن مشروعه/ مشروعنا القومي كان ينتابه التراجع من الدول التي كانت في سبيل إقامـــة وحـــدة عربية معها، كان الانفصال قد حدث، وانتهت أواصر أول وحدة عربية في التاريخ، وراحـــت الخلافات مع العراق تزيد، بل إن اليمن الذي كان قد أعلن في بداية إعـــلان وحـــدة مـــصر وسوريا انضمامه إلى هذا الاتحاد، كان في سبيله الآن ليتراجع أيضًا، ويتمرد علـــى القـــوى الصاعدة ضد الاستعمار وفي العالم العربي في ذلك الوقت.

ورغم أن القوى الانفصالية والرجعية كانت قد تصاعدت، فإنها كانت تقف في موقـــف ضعيف بهذا التفكك الذي أحدثته، وهذا النكوص الذي لم تستفد منه غير القوى الغربية (كانت الأمركة في هذا الوقت في خطواتها الحثيثة للاستحواذ على العالم وتمزيق القطـــب الآخـــر، خاصة، أن الدولة الثانية التي اعترفت باليمن بعد مصر كانت الاتحاد السوفيتي).. كان الواقع العربي يفرض نفسه.

لم يكن نابليون قد جاء إلى مصر بطلب من المصريين، ولكن الأمر اختلف هذه المرة لقد جاء عبد الناصر إلى اليمن بطلب من القوى الثورية فيها، بل إن هذه القوى خطت إلى أبعد من ذلك حين ركزت طلباتها من مصر في سرعة الاعتراف، وسرعة وصول قوات مـــسلحة لتقف إلى جانب القوات الثائرة بصنعاء، وتحارب معها معركة التحرر العربي ضـــد القـــوى الرجعية في المنطقة والقوى الغربية في الشمال، وزادت فطلبت دعمًا أكثر تمثل في: إســـهام في الإدارة، ودعم في الإعلام، وسرعة في التلبية. (يقول التاريخ إن مصر بادرت فعلاً فـــي نهاية سبتمبر ١٩٦٢ فأعلنت اعترافها بحكومة الثورة، وعلى الفور أرسل عبد الناصر برقيته إلى رئيس مجلس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة هناك بأن مصر تقـــف "إلـــى جانـــب الشعب اليمني لتسند إرادته وتناصر حقه في الحياة".

لم يكن عبد الناصر يسعى إلى إمبراطورية مصرية كما كان يسعى نابليون هناك.

كان عبد الناصر بوضوح شديد سعى إلى تأكيد الفكر القومي في هذا الموقف في مواجهة القوى الشرسة سواء من قبائل الصحراء المجاورة لليمن أو من الشمال حيث الغرب كله كان يسعى إلى إجهاض المشروع العربي في هذا الوقت (كشفت الوثائق – فيما بعد – أن خطة اصطياد "الديك" عبد الناصر – وضعت في واشنطن حينئذ).

كان المشروع العربي يواجه المشروع الإمبريالي الأمريكي في الستينيات من هذا القرن، تمامًا كما حاولت مصر، في نهاية القرن الثامن عشر أن تواجه المشروع الاستعماري الفرنسي.

كان البون شاسعًا بين التوجهين.

لم يكن نابليون هو عبد الناصر أبدًا.

* * *

لقد خدع نابليون المصريين حين راح يؤكد أنه ما جاء إلا لوضع مصر في مصاف الدول المتقدمة، ولكي يقضي على المماليك الذين أذلوا أهل البلاد واستولوا على خيراتها.. بينما كان عبد الناصر يعبر عن القيم التقدمية التي نادى بها سواء من صوت العرب منذ سنوات ضد القوى الرجعية في اليمن أو سرعة الاعتراف بالثورة اليمنية نفسها، ووضع لها اتفاقًا استمر لخمس سنوات.

كان نابليون في أول الأمر يسعى إلى احتلال إنجلترا، ثم تغيرت خطته – أمام عديد من الصعوبات – لاستعمار عديد من الدول الإستراتيجية ليقطع الطريق على إنجلترا إلى مستعمراتها. أما عبد الناصر، على العكس، كان يسعى إلى تأكيد إيمانه بالقومية العربية وضرورة تحرير كل أجزاء الوطن العربي من الرجعية والتخلف والاحتلال.

كان نابليون يسعى إلى تأسيس إمبراطورية استعمارية.

كان عبد الناصر يسعى إلى محاربة أية إمبريالية استعمارية.

سعى نابليون لإجراء عديد من الإصلاحات لصالح المستعمر أو – إذا أحسنا التقدير– لاستمالة الأهالي ليظهر بمظهر المتمدين والذي يبحث عن مصالح أهل البلاد.

أما عبد الناصر، فقد سعى حثيثًا، حين ذهبت القوات المصرية إلى اليمن، ومنذ الأيام الأولى، إلى إقامة الإصلاحات، بل الأكثر من ذلك خلق نظام للخدمات لم يكن موجودًا في

اليمن، فأسهم في مد الطرق وإقامة المطارات وخطوط التليفون والتلغراف والمستودعات والورش والمستشفيات وجمع الأنظمة الاقتصادية الأخرى..

لم يبدأ نابليون التحديث حتى بطريقة دهاء التاريخ.

بدأ عبد الناصر التحرر والتحديث وسعى إليه.

* * *

بقيت صورة لا تخلو من دلالة:

قال نابليون وهو يقف على مشارف موسكو في نهاية القرن الثامن عشر: "هنا ينتهي التاريخ" أي إن التاريخ انتهى بانتصار الاستعمار الفرنسي.

وأشار "فوكوياما" ممثل الإمبريالية الأمريكية في نهاية القرن العشرين إلى "نهاية التاريخ"..

وهو قريب مما ردده بوش عقب الذهاب (كنابليون مع تغير الظروف) إلى الخليج العربي تحت مسميات كثيرة أي إن التاريخ انتهى بانتصار الإمبريالية الأمريكية.

فهل كان عبد الناصر هو نابليون؟

وهل كان عبد الناصر هو بوش؟

وما علاقة هذا كله "بدهاء" التاريخ كما يذهب بعض كتابنا المعاصرين.

سامحهم الله.

رطانة المثقفين!!

منذ كتب عن الحملة الفرنسية وأنا أتابع ما يكتب عنها فأسمع شيئًا كالرطانة أو قريبًـــا منها.. والرطانة (بفتح الراء وكسرها) في لسان العرب هو كلام لا يفهمه الجمهور، وهو مـــا يعني أن أغلب ما كتب أو قيل يصور هذه الرطانة ويعكسها في المفهوم العام إما لتعدد الآراء وتباينها أو لتداخلها لتبدو كحشرجة المذياع بين المحطات الرئيسية.

هذه الملاحظة لم أقصد بها لوم أحد، وإنما هي (تقرير حالة) لموقف المثقفـــين اليـــوم وهو موقف يمتد ليصل إلى عديد من قضايانا التي نناقشها في الإعلام المكتوب أو المـــسموع أو المرئي، فينتهي الأمر إزاء أية قضية تعن لنا، بمعارك وهمية لا نصل فيها إلـــى جديـــد، ونرى عبر صيحات (جنرالات المقاهي) الكثير من القضايا تتعثر قبل أن تسقط فلا يسمع أحد عنها بعد فترة لتبدأ معركة أخرى من موقع إعلامي أو ثقافي آخر.

لقد تنامت إلى أصوات هذه الرطانة عبر أسلاك التليفون أو خطابات مكتوبة أو كتابات قرأناها جميعًا في الصحف، وكان آخر هذه الأصوات وأعلاها هي التي سمعتها في (الملتقـــى الثقافي) الذي أقيم بالإسكندرية وأشرف عليه أحد رجال الأعمال، واستطاع أن يجمـــع جمعًـــا ضخمًا من الأساتذة والمهتمين من شتى الفئات لمناقشة (آثار الحملة الفرنسية..) وحتى إذا مـــا انتهت الجلسة الأولى حتى اكتشفت أنني – مع تداخل الأصوات واختناقها – كدت أسقط أيضًا في الرطانة.

* * *

وقبل أن أغيب أكثر في هذه الرطانة لا بد من الإشارة إلى هذا الجهد الكبير الذي قام به صاحب (مؤسسة أندلسية) من تجميع كل هذا العدد الهائل لمناقشة قضية يمكن أن تكون – لو تنبهنا للزاوية الخطيرة فيها – إلى أهم القضايا التي تناقش في نهاية القرن العشرين.

والواقع أن صاحب الملتقى يعد استثناء بين رجال الأعمال المعاصرين الذين يتحدثون ليل نهار عن المشروعات التنموية الخاصة، أو أعمال الخير التي يقال أنها تتم في الخفاء، ولا بأس من الحديث العام في ندوات تعقد هنا أو هناك لرصد دور رجال الأعمال أن نسمع مـــن بعض رجال الأعمال أنفسهم أنهم يقومون – ويقولونها بفخر شديد– بتشغيل أعداد من العاطلين مما يجعلهم يسهمون ف يحل أزمة البطالة مطالبين بالكثير من التسهيلات لبرامج الخصخصة.

لقد لاحظت أن صاحب هذا الملتقى يعمل – منذ فترة ليست بالقصيرة – على تـــشجيع الثقافي لا الدعائي، وقد دهشت أن أعرف أن هذا الموضوع – الحملة الفرنسية– ينـــاقش فـــي

ذلك الملتقى للمرة الرابعة (أحجم عن ذكر الأساتذة الفضلاء في هذا الملتقى كيلا أنسى أحدهم، وكلهم معروفون بالعلم وسعة الأفق)، وإن شغل بها الغالبية من المثقفين الآن (وهي مثال لأية قضية من قضايانا الشائكة)، فإن هذا لا ينفي أن لدينا – في الوقت نفسه عددًا آخر من المثقفين الواعين، غير أنها أقلية، يكاد صوتها يذهب مع رياح الرطانة العالية ومن الملاحظ أن التأثير الأكبر ما زال لهذه الغالبية.

* * *

إنها تعلو مرة إلى أقصى درجات المعارضة لمن يهاجم الحملة وتعلو مرة أخرى لتصل إلى أقصى درجات التأييد لمن يدافع عن العثمانيين.

البعض يريد أن نفصل ما بيننا وبين تراثنا حتى نوصل ما بيننا وما بين الغرب.

والبعض الآخر لا يريد أن يتزحزح عن القرن الثاني للهجرة كيلا نتفرنس ونقع في محظور الغرب وحضارته الآثمة.

وبين هؤلاء وأولئك درجات كثيرة من الرفض والقبول والغضب والشجار.. إلى آخر هذه الهجائية التي تعلو فتصنع الرطانة وتغلو فتصبح بغير قضية تصل بنا إلى الرأي الصواب.

البعض يرى أن عصورنا الزاهية كانت في القرون التي شهدت وجود العثمانيين واستبدادهم. والبعض الآخر يرى فضل الحملة الفرنسية في أنها جاءت فأحدثت (الصدمة الكهربائية) التي دفعت بالجسد (الميت) إلى انبعاثه عاد بها إلى الحياة.

البعض يلوم وزير الثقافة لأنه أيد الاحتفالات بالحملة.

والبعض الآخر يرفض أن يكون الوزير فعل ذلك؛ مقسمًا أنه سمعه – بأذنيه- يتهم من يؤيد الحملة بالخيانة.

إنها الرطانة تتكرر في كل ما نقرأ أو نسمع عن مجيء الحملة، وخطورة الرطانة أنها أصبحت في حكم البدهيات، والبدهيات يمكن أن تصبح مع مرور الوقت، وتكرار الآراء أقرب إلى ضيق الأفق بما لا يمكن تغييره، فقد تعود الذهن العربي على التقليد، وأصبح من المستحيل الإقلاع عن ما عرفه، على اعتبار أن ما عرف أصبح بدهيًا.

والبدهي نوع من أنواع الواقع يجب أن نتعود عليه ونعيش معه. وهو ما نستطيع أن نعدد معه هنا قضايا كثيرة أصبحت تتداول كأنها حسمت كالحديث عن قرار صدر للاحتفال رسميًا بالحملة الفرنسية، أو منح منهجية فلسفية لقضية وهمية نوقشت تحت عنوان (دهاء

التاريخ) أو المدى الذي أحدثته (الصدمة الحضارية) في إفهامنا إلى غير ذلك مما كانت تتحول القضايا معه إلى اتهامات يتصايح أصحابها لتذوب في هذه الرطانة مرة أخرى.

ومن هنا، حرصنا أن نبتعد عن الرطانة، وأن نبحث عن القضية الجوهرية.. وهو السؤال الرئيسي في القضية؟

* * *

بمتابعة ما كتب أو ما قيل، وباستخدام عين الطائر، لاحظنا أننا أمام ثنائية في الفهم: الاستعمار/ الحضارة، لا تلبث أن تتوحد إلى قضية واحدة تعالجه – مع اختلاف وجهات النظر– بشكل محدود، قضية تشير إلى الفرنسيين كمستعمر، ولا تلبث القضية الأخرى أن تقترب أكثر فأكثر من الحضارة، فيغيب المستعمر وويلاته التي عرفناها من مصادر عديدة إبان مجيء الحملة ويتحول إلى حضارة وحسب، وإذا كانت تكاليف الحملة ثقيلة، فإنه لا مناص من الاقتناع بها.

إنه الصراع بين الوطنية والحضارة.

والواقع أن المراهنة على أن الحملة الفرنسية جاءت كمستعمر –كما أشرنا من قبل– واقع لا يقبل المجادلة، ففظائع الحملة تسود مراجع كثيرة من فظائع شبراخيت ومعركة الأهرام، وصولاً إلى كل ما ارتكبه كليبر بفظاظة لم نعرفها في عصر جنكيز خان من قبل، كان يجب أن نقول – ونستريح إلى ما نقول– أن الغرب جاء إلينا في نهاية القرن الثامن عشر كمستعمر، أرسلت الثورة الفرنسية وعصر التنوير من يبحث لها عن أسواق جديدة ومستعمرات غنية ومجدًا مهيبًا تواجه به ما ضاع أثناء صراعها من الإنجليز، فكان الصراع بين الفرنسيين والإنجليز لظهور الحملة في مصر، وما ترتب عليها من القتل والتسفيه والحرق وما إلى ذلك مما عرفناه في التاريخ الإنساني مما يتلاشى معه الأثر الحضاري – على اعتبار أنه جاء وبقى فترة الثورة الفرنسية.

لم أكن في حاجة إلى أن أقرأ "ذكريات سانت هيلانة" أخيرًا لأسمع صوت نابليون في بداية القرن التاسع عشر وهو يبدي ندمًا شديدًا على تركه مصر ويكشف عن حلمه استخدام مصر كقاعدة لغزو الشام ثم العراق ثم فارس وحتى الهند وقد كان في نيته –كما تقول الذكريات– أنه كان سيقوم بتكوين جيش مصري من أبناء الفلاحين المصريين لإنشاء هذه الإمبراطورية الاستعمارية، بل إنه لا يتردد في الكشف عن أنه كان قد أعد عدة مشاريع للعودة إلى مصر مرة أخرى بعد أن كان قد خرج منها بل وأرسل جواسيس لمصر تمهيدًا لذلك الحلم الاستعماري.

كما لم أكن في حاجة لأستمع إلى مواطنه – الفرنسي المعاصر ريتشارد جاكمون– وهو يقول: "المعروف هو وجود ارتباط بين السيطرة العسكرية والعلمية للمشروع الاستعماري إبان القرن التاسع عشر".

كذلك لم أكن في حاجة لأمسك في يدي جريدة الحملة الفرنسية في مصر وأقرأ في الكودييه دي ليجبت العدد ٧١ (٢٧ بريريال – السنة الثامنة للجمهورية) وأمسك في اليد الأخرى عبد الرحمن الجبرتي (سنة خمسة عشر ومائتين وألف(*)) عن مصير سليمان الحلبي، وأقرأ:

جاء في الصحيفة:

"لقد اختارت اللجنة بالإجماع نوعًا من العذاب، يستخدم في البلاد بالنسبة للمجرمين الكبار، ويناسب فداحة الجرم، ولهذا فقد حكمت على سليمان الحلبي بأن يحرق معصم يده اليمنى، ثم يغرس في مؤخرته وتد ليخترق أمعاءه، ثم يترك وحيدًا وبه الوتد إلى أن تأتي الغربان والطيور الجارحة لتنهش جسده و..."

وجاء في عجائب الجبرتي: (ولا يجب أن يخدعنا انبهاره بالعدالة الفرنسية المزعومة):

"... وأفتوا أن سليمان الحلبي تحرق يده اليمنى وبعده يتخزوق ويبقى على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور، وهكذا يكون فوق التل الذي بر قاسم بك ويسمى تل العقارب وبعد دفن ساري عسكر العام كليبر وقدام كامل العسكر وأهل البلد الموجودين في المشهد ثم..."

ويهمنا في هذا الصدد أن نقول أنه في الوقت الذي نتحدث فيه عن حملات بونابرت وقسوته هو وخلفائه على الشعب المصري الأعزل لا يجعلنا نغض الطرف عن حملات عثمانية سابقة كانت أكثر قسوة.

وهو ما يعني أن ذكر عنف الغرب إنما لندلل به على أن حضارة العنف التي تحاول أن تبرر كل شيء بالعنف من أجل تأكيد وجود الرجل الأبيض واستحقاقه، خاصة، أن العنف كان متقدمًا أكثر من العثمانيين، فجاء موقفه على حساب قيمه والزعم بالدور الحضاري للرجل الأبيض وتنويره.. وما إلى ذلك.

إن العنف لا يجعلنا نكيل بمكيالين ونحن نرى الآن، في معرض حديثنا عن قسوة الفرنسيين أن ثمة عنفاً ومذابح ترتكب من بعض المسلمين على المسلمين وهو ما لا ننكره أو ندافع عنه.

(*) الجزء الثالث من عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، المطبعة العامرية الشرقية ١٣٢٢.

وإنما نحن بصدد الرفض أن نصدق، مع البعض أن الحملة الفرنسية جاءت لتحضرنا، أو أنها جاءت لتلقي بنا في طاحونة التمدين.

وفي جميع الحالات، فنحن لا نهاجم جنود الحملة الفرنسية لحساب السلفيين، وإنما لكشف الموقف الغربي العنصري الذي يتخذه الغرب منا (سواء كان فرنسيًا أو أمريكيًا أو صهيونيًا..).

* * *

وعودة إلى ما سبق، فلم أكن في حاجة لأن أؤكد – وقد دعيت للحديث في الملتقى الثقافي– أن الحملة الفرنسية ليست أكثر من حملة صليبية ثامنة (سبقتها الحملات الصليبية المعروفة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر) –على سبيل المثال– وهو ما تعرفنا عليه في العصر الحديث في كثير من الأمثلة.

ثم، ودون القفز على الأحداث، ألا يعد ما يحدث الآن في الغرب من بناء الفرانكفونية امتدادًا مؤكدًا لأهداف الحملة الفرنسية، لقد أعلن الرئيس شيراك، صراحة، إبان تولي بطرس غالي لهذه المنظمة تحول الفرانكفونية من الثقافة إلى السياسة.

البحث عن الدور السياسي لا الثقافي هو هدف الرئيس الفرنسي.

إذن هي الهيمنة الاستعمارية الفرنسية من جديد في عصر العولمة (الأمركة).

وهل نحتاج إلى رطانة لتأكيد هذا؟

الحملة الفرنسية/ الأمريكية..!!

بيننا من يتحدث – لا يزال – عن ذكرى الحملة الفرنسية وكأنها بداية التحضر العربي في العصر الحديث، ويغيب البعض – لا يزال – في رطانة افتقاد الوعي ورعونته.

وقد دهشت، في المرة الماضية، أن يغضب عدد كبير من المثقفين من لفظ (رطانة) التي استخدمتها، وكأنني أعني بها سوء النية، أو النيل من البعض، في حين أنها لم تزد – عندي– على أن تكون خلافًا في الرأي الذي يريد إفهامنا ولن نفهم أبدًا أن الحملة الفرنسية جاءت بهدف تحضرنا نحن الخارجين من انحطاط العصر الوسيط – بالمناسبة ليس في التاريخ الإسلامي عصر وسيط، كالتاريخ الغربي، بين القديم والحديث.. وهو رأي لا نتفق فيه مع أصحابه، فالحملة الفرنسية جاءت من الغرب، وتحاول في امتدادها المعاصر عبر الغرب الأمريكي الوقح ضرب شعب العراق لتعيد العرب إلى الوراء.. الحملة التي تأتي من الغرب من آن لآخر تحمل هدفًا استعماريًا واحدًا يتغير شكله وزمنه ولا يغير اتجاهه ومضمونه.

الحملة.. الأمريكية الآن تسير في هذا السياق، وهي قبل هذا وبعده تأتي من الغرب إلى الشرق. ولذلك كانت سعادتي بالغة بعديد من ردود الأفعال التي وعت هذه البدهية وأكدت عليها في تاريخنا الحديث وهو ما نتمهل عنده قليلاً.

* * *

نختار من بين استجابات كثيرة جاءت إلينا رسالة من الإسكندرية، وبوجه خاص من ندوة (الحملة الفرنسية)، وبوجه أخص من د. محمد صفوت لتمثيله لعدد كبير من المثقفين في هذه الأمسية. جاء في رسالته بعد الديباجة:

(.. واسمح لي بعد قراءتي لمقالكم الأخير المنشور في جريدة الأهرام ١٦/٢/١٩٩٨م تحت عنوان "الحملة الفرنسية ورطانة المثقفين" أن أشير إلى ما يلي: برغم كل الندوات والتحليلات التي دارت حول الحملة الفرنسية فإن نابليون كان صريحًا وواضحًا في تحديد مهمته في مصر عندما قال "سأستعمر مصر"، لكن الشعب المصري رفض المهمة التي يدعي البعض أنها حضارية لنابليون، وأدركت جموع الشعب آنذاك دون جدل أو لجاجة أنه قادم لاستعمار مصر فقاومته وأفشلته، وأصبح الصراع الفكري الذي يدور بين المثقفين منذ الحملة الفرنسية إلى اليوم يدور بين أمرين، أولهما: الوطنية التي ترفض قيم الحضارات المتفوقة وترفض الاندماج فيها والتبعية لها، وتتشبث بوجودها وذاتيتها وتراثها، وثانيها: الحضارة الغربية التي تمثلها الاتجاهات التغريبية في المجتمع التي تعتبر الحضارة أو التقدم

كل لا يتجزأ، فإذا أردنا حضارة الغرب فعلينا أن نصبح غربيين، لذا فإن كلاً زعم إبان الغرب حاول تطويرنا وتحديثنا هو جهل بالتاريخ وتزوير لوقائع العلاقات بين الغرب والشرق، فقد كان دائمًا الاحتلال الغربي للشرق هو العقبة التي حالت دون تحديث الشرق، ويظن بعض المثقفين أن حضارة أية أمة عبارة عن علومها وآدابها وفنونها وصنائعها وبدائعها وأطوارها للحياة المدنية والاجتماعية وأسلوبها للحياة السياسية، ولكن الحقيقة أن ليست كل هذه الأمور بالحضارة ذاتها وإنما هي نتائج الحضارة ومظاهرها. وإذا صح هذا فلا يجوز أن تحدد وزن حضارة وتحديد قدرها وقيمتها على أساس ما لها من هذه المظاهر، وإنما علينا أن نتوصل إلى روحها ونتحسس أساس أصولها.

وبعد؛ فقد كانت بادرة حميدة تلك التي تقدم لها، المهندس محمد تاج الدين حين طرح بعض ما تقدم في منتدى أندلسية للثقافة والعلوم في الإسكندرية حيث تشرفت برئاسته..".

وهنا تنتهي الرسالة لتعود تداعياتنا.

وهو ما يدفعني في نهاية السياق إلى تأكيد أن روح الحضارة الإسلامية لم تتأثر بأية حضارة أخرى مهما تكن الظواهر التي تتحدث عنها فقط، اللهم إلا في درجة الاحتكاك والتأثر وهو ما يعاد صياغته عبر الروح الأصلية للحضارة الأم، وهو ما يحول، في الوقت نفسه.. في حضور الاستعمار.. دون إتمام دورة الحضارة بشكل خالص.

بيد أن الدلالة التي يجب أن نشدد عليها الآن، خروجًا من العموميات، أن الحديث عن الحملة الفرنسية ليس غير حديث عن الحملات التي تأتينا من الغرب، وآخرها ما نعايشه ونشهده الآن من الهجمة (=الحملة) الأمريكية الوقحة.

* * *

ولا نحتاج إلى تأمل كبير لنلاحظ نفس الشبه الذي يخيم على كل هذه الحملات، فالغرب – وبتعبير مرجريت تاتشر– انتهى عقب سقوط الكتلة الشرقية من العدو التاريخي وبقى – وما زال التعبير للمرأة الإنجليزية – العدو الأزلي.

وحين سُئلت إبان حرب الخليج في بداية التسعينيات عن العدو الأزلي لم تكن في حاجة لهز الكتف وهي تردد: الإسلام.

إنه الغرب حين تتغير أساليبه من "الفرنسة، النجلزة، الأمركة" إلى أهدافه: "الاستعمار، الإمبريالية، الرأسمالية" إلى سعيها الدائب أي الهيمنة على الشرق عبر تاريخ طويل مرير.

وهو ما لا نستطيع الخلاص منه كلما تحدثنا عن الحملة الفرنسية – كإحدى حملات الصراع– بين الغرب والشرق، أو بين الشمال والجنوب، وهو ما يبدو أكثر حين يصور أن نهاية التاريخ هو انتصار الغرب النهائي.

* * *

والواقع أن حضارة أية أمة لا تتمثل في علومها وفنونها وصنائعها ولا حتى ما تأتي به من مبهر وعجيب كما لاحظ الجبرتي، وبالقياس، فلا يمكن أن ننظر إلى الحضارة الأمريكية بما هو شائع عليها مثل الجينز والكوكاكولا والهمبرجر ومنتجاتها الاستهلاكية التي تمتد لتشمل العالم كله كما ردد البعض في الندوة التي عقدت ببيروت أخيرًا عن (العرب والعولمة).

الحضارة هي الأثر الذي ينبع من روح الأمة، والذي يكون نتاج الجغرافيا والتاريخ والعقيدة والاحتكاك.. إلخ، ومن هنا نستطيع ببساطة أن نلاحظ أن ما تسعى به الولايات المتحدة الأمريكية بحملتيها على العراق ليس غير هجمة رأسمالية عاتية تستكمل بها هجمات سابقة عرفنا بعضها عقب الحرب العالمية الثانية، وعرفنا أهمها إبان حرب الخليج وما بعدها حتى اليوم.

إذن نستطيع أن نستبدل بالحضارة هنا اللفظة الشائعة المعبرة (العولمة). ونستطيع أن نستبدل بالإمبريالية التقليدية: الرأسمالية التي انفردت بالعالم بعد انفراط عقد الثنائية القطبية وعصر الحرب الباردة.. وما إلى ذلك.

ونستطيع أن نتحدث عن حضارة الغرب النابعة من روح الغرب وتجاربه وتقنياته عبر التاريخ حتى اليوم، وهو ما نستطيع أن نتحدث به الآن عن (العولمة) الأمريكية التي تنبع من السيطرة والتفوق لها عالميًا في تحول كل القطاعات المعروفة إلى صياغة أمريكية خاصة بها، فتقوم – تحت ضغوط ووسائل شتى– بعولمة قطاعات الاقتصاد والتجارة والمال والاستثمارات والاتصالات.

ونستطيع أن نشهد هذا بشكل آخر، حين نقول إن الحملة الأمريكية المعاصرة، تقوم على العولمة التي هي – بالتمام، كما يرى العم سام– الهيمنة على العالم كله عبر الشركات المتعددة الجنسيات والحلف الأطلنطي الجديد، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والجات في تجلياتها الجديدة الخطيرة بعد أن تحولت إلى منظمة التجارة العالمية، ومجلس الأمن الدولي الذي لم يعد له فائدة أو تأثير اللهم في اتجاه (الأمم المتحدة الأمريكية) ومن وجهة نظر أصحابها. كما أن الهيمنة تمتد – بشكل مفزع إلى وسائل الاتصالات والإعلام والمعلومات

المتعارف على تسميتها (بالطرق السريعة للمعلومات) أو (وسائل الإعلام المتعددة الوسائط).. إلخ.

نستطيع أن نشهد هذا حين نرى آثار هذه العولمة وهي تتحول إلى تطبيق في الإعلام المسيطر والمتمثل في السينما الأمريكية الماكرة والمسلسلات والأفلام التليفزيونية المبهرة التي تمتد إلى مساحات شاسعة على الكرة الأرضية، ونستطيع أن نرى آثارها بالنسبة إلينا في التأييد المعلوماتي المخيف لإسرائيل حين يزيد المد المعلوماتي ووسائله إلى إسرائيل (لا فارق بين أمريكا وإسرائيل) فنحن نسمع عن التعاون العلمي الهائل بين الدولتين، ونحن نعاين التعاون الكبير في التصدي للشعب الفلسطيني بعد اللعب على أوتار الخروج على الاتفاقات المتفق عليها كمدريد وأوسلو.. إلخ.

ثم نحن نعرف ممارسات تظهر فجأة في أوقات معينة مثل (حقوق الإنسان) – ويقصد بها حق الإنسان الأمريكي الغربي في السيطرة على الشعوب الأخرى وثرواتها، و (مؤتمر السكان) ويقصد به (استعمار ثقافي) لعقلية الشعوب الأخرى وفرض الإرادة الأمريكية عليها – كما تكتب وتقرأ في صحف الغرب نفسه ثم لعبة (الأقليات) التي تخرج علينا من آن لآخر للتفرقة بين أبناء الوطن الواحد كلما زادت هوة الخلافات بين العالم الأمريكي والحق العربي.

وفي ندوة أقيمت أخيرًا بجامعة عين شمس (مركز دراسات الشرق الأوسط) دعا المحاضر وهو متخصص في القانون الدولي إلى الانسحاب من الأمم المتحدة على اعتبار أن هذه المنظمة والهيئات التابعة لها أصبحت لا تستطيع القيام بأي دور إيجابي في حل الأزمات العالمية كما أنها لا تستطيع أن تقوم بدور ما خاصة بعد تغيير العالم من عالم ثنائي القطبية يهيمن على (الفيتو) فيه خمس دول إلى عالم أصبح يهيمن فيه دولة واحدة لها مصالح واحدة ولها توجهات مغايرة للعالم كله. والغريب في الأمر أن هذا الرأي وجد استجابة واسعة لدى الحاضرين.

* * *

لقد تغير العالم إذن..

أصبحت الحملة التي نتحدث عنها كثيرًا هذه الأيام رمزًا لقبح الغرب الأمريكي وعنفه وضراوته ووحشيته وبغضه وعنجهيته.

خاصة حين يكون لهذه الحملة الغربية الآن، مدافعون وأنصار. وخاصة أن هؤلاء المدافعين والأنصار من الغرب.

لذا.. انتبهوا!!

هل أجهضت الحملة النهضة..؟

السؤال الذي يتردد كثيرًا الآن هو:

لماذا نحتفل بالحملة الفرنسية؟

والسؤال على بداهته يخفي سؤالاً أبعد هو:

هل كانت الحملة من معوقات التطور العربي فيما بعد؟

عدد كبير من مثقفينا يوافقون، جاءت الحملة بالحضارة لتؤثر بالإيجاب في التطور العربي في ذلك الوقت.

وجماعة أخرى ترفض، تنفي، تدرس، تؤكد، تغضب، وهل كانت بلادنا جثة هامدة قبل أن يأتي الغرب ليبعث فيها الحياة؟

ويلخص هذا كله سؤال استنكاري آخر. هو:

ألم تأت الحملة – بالفعل – لتجهض التطور العربي الطالع من القرون السابقة وخاصة القرن الثامن عشر، وقد كان هذا كفيلاً – لو ترك الشرق لشأنه – أن يمضي في سياق حضاري مغاير للغرب؟

هذا الاتجاه يجد اهتمامًا كبيرًا به في الفترة الأخيرة.

وقد مثل هذا الاتجاه عدد كبير من المثقفين والمؤرخين المصريين (بعيدًا عن المدرسة الاستشراقية) ولعل أبرز هؤلاء هو د. رؤوف عباس المؤرخ المصري المعروف.

فهل أجهضت الحملة – بالفعل– التطور العربي؟

* * *

وقد سبق د. رؤوف عدد كبير ممن أكدوا على هذا وحاولوا البرهنة عليه نجد هذا لدى بيتر جران في كتابه الملحوظ عند الجذور الإسلامية للرأسمالية في مصر، ومكسيم رودنسون عن الإسلام والرأسمالية، وعفاف لطفي السيد ولويس عوض في كتابه عن الفكر المصري ومحمود أمين العالم وسمير أمين وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، وليلى عبد اللطيف ومحمد غرباوي..

وأكثرهم يعتمد على كتابات المقريزي وابن تغرى بردي والظاهري والعمري وابن دقماق كما يعودون إلى قوائم المخطوطات قبل الحملة الفرنسية في دار الكتب وجامعة الأزهر ومكتبات الإسكندرية وسوريا وأسطنبول وسجلات المحاكم الشرعية.. إلخ.

ولعل د. رؤوف عباس كان آخر من أكد على هذه الفرضية سواء في الكتاب الذي انكب على ترجمته ونشر منذ فترة وجيزة (تجار القاهرة في العصر العثماني) من تأليف د.نيللي حنا، أو في تبنيه لكتاب بيتر جران ومراجعته، قبل ذلك، عند ترجمته إلى العربية أيضًا في عديد من كتاباته المتناثرة أو الرسائل التي أشرف عليها في هذا الاتجاه فلنتمهل أكثر عند (تجار القاهرة في العصر العثماني) ونحن نحاول أن نجيب عن السؤال المطروح حول فرضية إجهاض الحملة للتطور العربي في سياق تاريخي مغاير للتطور الغربي.

* * *

من البداية يؤكد الكتاب هذه الفرضية، ومنذ التقديم يعجب د. رؤوف أن يكون المؤثر الخارجي هو الفاعل في تحريك عجلة التغيير، والمؤثر الخارجي هنا هو الحضارة الغربية "وكأن مصر كانت عاجزة تمامًا عن الحركة، قعيدة لمدة ثلاثة قرون، فلم تنهض إلا بعد ما مد الغرب إليها يده" وهو يستطرد – حول هذا الفرض الخاطئ فيضيف أن:

"المجتمعات يمكن أن تتطور وفق سياق تاريخي مختلف عن النهج الغربي، كاشفة عن فساد الاستنتاجات التي توصل إليها المستشرقون في دراساتهم حول العصر العثماني عامة، وتطور مصر في ذلك العصر خاصة، مؤكدة أن الثقافة الوطنية العربية الإسلامية توفرت لديها في هذا العصر مقومات التطور، وأن قدوم الغرب لم يكن بعثًا للحياة في مجتمعاتها، وإنما كان من معوقات تطورها".

وبين صفحات الكتاب تتمهل بنا الكاتبة نيللي حنا عند عديد من الهياكل والمؤسسات التجارية والبحرية والعلمية.. إلخ لتعبر لنا عن هذه الفرضية، وسوف نضرب لها أمثلة على ذلك:

كانت مرونة الحركة بين الولايات – ومنها مصر– باعثًا على تأكيد المد الإيجابي للتطور، فكما نجد هذا عند التجار وغيرهم من أصحاب الحرف، كذلك نجده – خاصة– لدى العلماء، فقد كانوا كثيري الانتقال من مركز علمي إلى مركز علمي آخر (انظر تراجم الغزي في القرن السادس عشر)، والاستقرار بصورة مؤقتة أو دائمة في إحداها للعمل بالتدريس أو القضاء، وهم في ذلك يحتفظون بأوضاعهم الاجتماعية، بغض النظر عن المكان الذي يقيمون فيه وهو ما ينتقل بن إلى عامل التعليم.

وأهم صور التعليم كانت الكتاتيب التي كانت منتشرة بشكل واسع قبل قدوم الحملة إلى مصر، وهو ما يجعل هذه المناطق للتعليم متاحة لأكبر عدد من الأولاد الصغار؛ حيث كانوا يقصدونها لتعليم القراءة والكتابة والحساب.

وفي الجانب التجاري بدا واضحًا أن ظاهرة البيوت التجارية العائلية المشتغلة بالتجارة الدولية كانت معروفة تمامًا، ويضرب لنا الكتاب مثالاً بعائلة الكارمية الذين اشتغلوا بالتجارة في القاهرة المملوكية، وكانوا ينتظمون في شبكات تجارية عائلية، وينتقلون في شبكات تجارية امتدت إلى آسيا وسواحل البحر الأحمر فإفريقيا مما يشير إلى عظم التأثير التجاري الذي كان يمكن أن يمثل امتداده الطبيعي تطورًا إيجابيًا؛ بل إن بعض البيوت التجارية – وضرب لنا الكتاب أمثلة – كانت تصدر نسبة كبيرة من البضائع التي يجلبها من الهند إلى بعض موانئ الدول العثمانية وأوروبا عن طريق الإسكندرية ورشيد ودمياط، وكان لكل مؤسسة تجارية وكيل تجاري في طرف من أطراف الأرض، وكانت تتنوع في هذه المحاصيل وتتكاثر، بل وتشير الوثائق أنه كان للتجار الشرقيين جاليات بالبندقية وفيرارة وأنكونا وبيزا ونابلي بما يعني أن المجال الجغرافي كان متسعًا.

ومع أن منصب (شاهبندر التجار) لم يكن وراثيًا في القرن التاسع عشر، فإن الإجراءات التي كانت تتبع في ذلك اتفقت مع تلك التي كان تتبع عند تعيين أو انتخابات شيوخ الطوائف الأخرى؛ حيث كان الشخص يختار بإجماع أعضاء الطائفة، وتصدق المحكمة الشرعية على ذلك الاختيار. ونظرًا لأهمية الشاهبندرية، لا بد أن يكون للسلطة دور في إقرار الاختيار وهو ما كان يؤكد أن المد التجاري كان يمضي في سبيل مؤسسي، يحكمه إما الاتفاقات التجارية المبرمة بين الطرف المصري والطرف الغربي، أو بين الطرف المصري تحت إشراف الحكومة المصرية والطرف الآخر أيًا كانت جنسيته.

وتلاحظ الباحثة تأثير الوكالات التي كانت قائمة على نطاق واسع فقد كانت تقع في مناطق سكنية تتوفر فيها كل وسائل الراحة لإنجاز العمل المراد، فكانت تقع وحدات السكن، وغرفة أو غرفتان للسلع وما إلى ذلك لإقامة التجار الذين يأتون من بلاد بعيدة لعقد الصفقات التي يطلق عليها الصفقات التجارية (تجار الترانزيت).

وتشير الدراسة إلى أن التجار كانوا يتجهون إلى تسجيل معاملاتهم كتابة وتوثيقها بالمحاكم وبوجه عام، فإن النظام التجاري كان يتسم بالضخامة والتوسع والمرونة إلى حد بعيد، خاصة، وقد توفر لهم مؤسسات تجارية وقانونية (قضائية) تؤكد وجودهم وكانوا: "يمارسون نشاطهم في إطار نظام وطني".

وكان أبرز الملاحظات في ذلك تغيير الأنشطة الاقتصادية، وهي تغييرات جاءت من داخل النظام لا من خارجه "فلم تأت نتيجة لتأثير أوروبي أو تنفيذًا لأوامر الدولة العثمانية، وبالإجمال كان النظام حيويًا ومرنًا إلى حد كبير، ويلاحظ أن زراعة السكر للتوريد وصلت إلى درجة بعيدة، ثم امتداد تلك الظاهرة إلى القطن والكتان، كذلك كانت المنسوجات المصرية

تصدر بكميات كبيرة إلى الأناضول وأوروبا، وحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت مصر تصدر كميات كبيرة من النيل إلى فرنسا؛ حيث كانت توزع هناك في البلاد الأوروبية الأخرى".

لقد كانت مصر تمضي في تطورها الطبيعي بعيدًا عن المد الغربي الصاعد وهو ما كان يعكس في مرة العلاقات الوثيقة بين التجار، وفي مرة براعتهم الاقتصادية في التعامل مع الخارج، وفي مرة العلاقات التي تحولت إلى علاقات قوية بين التجار والحكام؛ مما يشير إلى أن تطورًا ما كان على وشك الحدوث في البنية الرأسمالية الخاصة بنا.

لقد كانت مصر تمضي في تطورها الطبيعي بعيدًا عن رأسمالية الغرب المتربصة.

* * *

نلاحظ أن هذه الدراسة تتفق مع دراسات أخرى سبقتها كدراسة بيتر جران التي ركزت أكثر على العامل الثقافي – من أن ثمة تغييرات تجارية هامة حدثت قبل فترة التوسع في استيراد النماذج الأوروبية التي بدأت بالحملة الفرنسية، وبذلك، تصبح هذه الفترة، خاصة في القرن الثامن عشر، قاعدة التطورات التي كان يمكن لها أن تتطور أكثر، كما لا يمكن فهم النهضة في القرن التالي دون فهم هذه التغيرات هنا.

إن هذا يشير – بوضوح شديد– إلى أن عملية التحديث التي وضعت قبل عام ١٨٠٠ اختلفت عن تلك التي حدثت بعد ذلك التاريخ، وأن ما حدث من انقطاع نراه يتمثل في قيام الدولة الوطنية على النحو الذي كانت عليه في القرن التاسع عشر، والتطور التكنولوجي وأثره على المجتمع، وأن ذلك الانقطاع حدد ملامح اتجاهات تجربة التحديث عندنا.

وهو ما يمثل – بوضوح– قدر التغير الذي حدث بمجيء الحملة، ثم شروع محمد علي في تغييراته التالية.

إنها تغييرات ارتبطت بالمد الغربي سواء في مجيء نابليون إلى مصر أو في فهم كيفية التطور الذي حدث بعد ذلك في عصر محمد علي ويعود بنا د. رؤوف عباس هنا إلى تساؤل هام – يطرحه الكتاب – هو:

ما هي العوامل التي حالت دون حدوث تحول رأسمالي في العالم العربي خلال ذلك العصر؟

واستطرادًا لهذا، يشير إلى:

أن التحولات التي أحدثها محمد علي لم تنشأ من فراغ وخاصة أنه لم يعتمد على رأس المال الأجنبي في إقامة البنية الأساسية لاقتصاد السوق الخاضع لإدارة الدولة، وإنما

اعتمد على موارد مصر وحدها طوال حكمه، وحقق التراكم الأول اللازم لإقامة تلك البنيـــة، من خلال إعادة تنظيم الاقتصاد المصري وتوجيه بعض قطاعاته وجهات جديدة،

وهنا يطرح عدة أسئلة تحمل إجاباتها:

فمن أين استطاع الاقتصاد المصري في مطلع القرن التاسع عشر أن يوفر كل تلـــك الموارد إذا كان اقتصادًا تقليديًا راكدًا؟ وكيف استطاع المجتمع المـــصري أن يتجـــاوب مـــع إصلاحات محمد علي إذا كان مجتمعًا يعاني من الاضمحلال والتخلف؟ بل كيف استطاع العالم المصري أن يستوعب الأساليب الفنية الحديثة في مصانع محمد علي إذا كـــان عطـــلاً مـــن الخبرة، مفتقرًا إلى الاستعداد؟

إلى آخر هذه الأسئلة التي لا نستطيع الإجابة عنها دون فهم التطور الذي كانت تمر به البلاد قبل مجيء الحملة.

لقد كان بوسع مصر أن تصنع نهضة تقوم على الهوية والوعي بالذات فـــي الإطـــار العام لولا أن جاءت الحملة فسعت إلى إجهاض هذه النهضة فأدخلت إلى الرأسمالية الغربيـــة عنوة بعد ذلك.

* * *

يلاحظ بيتر جران أن أحد الدبلوماسيين فشل في الإفراج عن رسالة من الأقمشة مـــن الجمارك المصرية في مارس ١٧٩٨ وبعد عام أرسلت فرنسا حملتها إلى مصر؛ وهذا يضيف إلى الحافز الاقتصادي حافزًا استعماريًا خالصًا.

النهضة لو لم يأت الغرب!!

يتراجع عدد كبير من أنصار الاحتفال بالحملة الفرنسية – الاستعمارية.. سواء في الجانب المصري أو الفرنسي، وهذا الموقف وإن بدا غير منظم في الجانب المصري، فإنه يبدو أكثر وضوحًا في الجانب الفرنسي.

يبدو هذا من إعادة صياغة العنوان الذي كان متفقًا على إجراء الاحتفال تحته إلى **(مصر وفرنسا/ آفاق مشتركة).**

ويبدو هذا في موقف الفرنسيين أنفسهم فمن يستمع إليهم أو يقترب منهم يرى أنهم يشيرون أن الاتفاق الذي تم إنما يقع على الجانب التاريخي/ الثقافي، وأن سوء التوقيت هو المسئول وراء هذا الفهم، وهو ما يبدو في تصريحات المتفرنسين أو الفرنسيين المقيمين بالقاهرة أو لدى العاملين الرسميين في المراكز الثقافية والاجتماعية كمركز البحوث العلمية (سيداج) الذي رفض أخيرًا الاشتراك مع الجمعية التاريخية للاشتراك في موضوع عن الحملة الفرنسية.

كما أن متابعة ما يصدر في فرنسا وصحفها في نهاية القرن العشرين يشير إلى هذا، فالكثير لا يتحدثون عن حملة استعمارية بقدر ما يتحدثون عن دور ثقافي، وعلى سبيل المثال دعى المؤرخ الفرنسي المعروف أندريه ريمون في فرنسا للمشاركة في هذا الاحتفال بذكرى الحملة، فما كان منه إلا أن أعرض بغضب وصرح بأنه سيقيم مؤتمرًا عن مصر في القرن التاسع عشر وجذورها في القرن الثامن عشر.

ماذا يعني ذلك؟

يعني أن اتخاذ هذه المواقف يشير إلى رغبة ملحة في الجانب الغربي لتحسين العلاقات المصرية الفرنسية في عصر (العولمة) الأمريكية وتأكيد الثقافة الفرنسية في زمن الفرانكفونية وإخفاء السمة العنصرية في الوعي الغربي وليس إيمانًا – بالضرورة – عن اعتقاد مكين – غير مصرح به الآن– عن دلالة الاحتفال بالحملة أو التراجع عن الجانب الاستعماري فيها وإعادة النظر إلى التاريخ بعيون فرنسية ولعل آخر مثال على ذلك: الدراسة التي صدرت للدكتورة ليلى عنان (سنعود إليها فيما بعد).

وهذه ملاحظة عامة يأتي بعدها أن نحاول استكمال الإجابة عن السؤال الذي طرح من قبل عن مدى تأثير الحملة عن تطورنا الفكري قبل مجيء الحملة إلى مصر.

* * *

وهذا السؤال يمكن تلخيصه على النحو التالي:

ألم تأت الحملة الفرنسية لتجهض التطور العربي الطالع من القرن الثامن عشر، وقد كان هذا كفيلاً – لو ترك الشرق وشأنه – أن يمضي في سياق حضاري مغاير للغرب؟

ماذا كان سيحدث.. لو لم يأت الغرب؟

وقد حاولنا الإجابة عن هذا السؤال عبر أكثر من مصدر، غير أن العودة إلى عدد من المصادر الأخرى، يضع بين أيدينا كثيرًا من الإجابات التي تؤكد وجودنا الحضاري/ القومي.

وقبل أن نعاود الإجابة لا بد أن نتمهل أكثر عند السبب الشائع الذي جعلنا نرى أن العصر العثماني كان (كله) عصر تخلف وجمود حتى وصول الحملة.

الشائع كان هو ذلك والواقع كان شيئًا آخر.

* * *

كاد يكون شائعًا لدينا جميعًا – شرقيين وغربيين– أننا لم نطلع قط من عصور التخلف العثماني وما ترتب عليه من أن العلوم التي كانت تدرس في الأزهر لم تكن لتخرج عن العلوم الدينية وفي أحسن الحالات بعض علوم اللغة.

أما العلوم العقلية من منطق وكيمياء ورياضيات لم يكن ليأبه بهذا أحد، فضلاً عن اتخاذنا كثيرًا من المصادر الغربية مصادر معرفية وحيدة بيد أن تحميل العصر العثماني كله فيه غبن كبير، فنحن نستطيع أن نتحدث بمثل هذا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وإلى حد كبير النصف الأول من القرن الثامن عشر.

أما النصف الأخير من القرن الثامن عشر بوجه خاص، فإننا نستطيع أن نعيد النظر فيه إلى التاريخ الفكري لنا، لنرى أن أخصب فترات تاريخنا كانت هذه الفترة – النصف الثاني من القرن الثامن عشر بوجه أخص، وقبل أن تأتي الحملة الغربية إلينا لقطع سياق التطور العربي. وقد لا تكون هذه القرون الثلاثة قائمة بهذا الشكل غير أن الفهم الشائه حوّل المعرفة إلى حقيقة، وانتفت من أذهاننا أن تكون الفترة العثمانية تشي ببارقة من الضوء.

فالقرون العثمانية كانت شديدة القتامة، وهو ما كان يعود – في المفهوم العام – إلى الحفاظ على العلوم الدينية واللغوية والمحافظة عليها، غير أنها لم تفتقد عديدًا من ومضات الضوء من آن لآخر.

يؤكد هذا أن عديدًا من القضايا كانت تفهم من فريق من العلماء بطريقة، غير أنها عند البعض الآخر لم تفقد الوجه الإيجابي للقضية.

ربما يفسر هذا نقاط الخلاف بين الجانبين المصري والفرنسي، وبين المصري والمصري كما نرى اليوم.

إذن، كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر عصر تطور حضاري وتقني – على عكس ما هو شائع– في عديد من المجالات، وهو ما كشفت عنه عديد من الدراسات التاريخية يأتي الجبرتي في مقدمتها، ويمضي في خط متصل – على سبيل المثال الدكاترة شفيق غربال وأحمد عزت عبد الكريم وأحمد عبد الرحيم مصطفى وعبد العزيز نوار وغيرهم وآخرهم كان د. عبد الله غرباوي الذي حصلت أطروحته عن الأزهر في القرن الثامن عشر على درجة الدكتوراه وهو ما نتمهل عنده الآن.

* * *

إن أكثر ما يلاحظ أن الأزهر في نهاية هذا القرن – الثامن عشر– لم يعرف درس العلوم العقلية كالرياضيات والفلك والطب، لأن مثل هذه العلوم تحتاج – كما يلاحظ– إلى آلات باهظة الثمن وغالبية طلبة الأزهر فقراء لا يقدرون على شرائها.

ومن هنا فقد كانت للمتخصصين، وكان هؤلاء يتقاضون لذلك أجرًا خاصًا نظير ذلك مثل هذا الشيخ الذي كان يرفض تدريس الرياضيات أبدًا، اللهم إلا بنظير أجر خاص لتقديره لقيمة هذا العلم، قائلاً: (أنا لا أبذل العلم رخيصًا).

كذلك يمكن ملاحظة أن العلوم العقلية كانت توجد في الكتب المؤلفة لتعليم البنات، كذلك استمرت دروس الطب في المارستان.

وكما كان الجبرتي أحد هؤلاء الذين اهتموا بالعلوم العقلية يذكر في تاريخه أيضًا أنه كانت هناك مدرسة في علم الفلك على رأسها رضوان أفندي الفلكي (١٧١٠) وقد أخذ على يديه أغلب المشتغلين بالفلك في مصر في القرن الثامن عشر.

ودارس هذه الفترة يلاحظ تقدمًا فائقًا في علم الفلك بوجه خاص حتى تشير المصادر إلى أن الفلكيين المصريين كانوا بارعين في عملهم، وأنهم استخدموا آلات جديدة استطاعوا أن يطوعوها لعملهم ويضيفوا إليها، وقد بلغ تقدم الفلك في مصر في نهاية القرن الثامن عشر إلى درجة أن أحدًا لا يستطيع أن يقلل منها.

وتزخر تراجم هذه الفترة ومؤلفاتها بعشرات العلماء في هذا العلم وتفوقهم فيه أيضًا ويذكر الجبرتي عددًا كبيرًا من العلماء الذين ألفوا في علوم الرياضيات والكيمياء والطب والمساحة وعلم يبحث في خواص الأعداد يسمى (لارتما طيقي) بل عرف علم الهندسة وشواهده الكثيرة في العمائر الشامخة الراقية فضلاً عن علم الفرائض (المواريث) وهو يحتاج

إلى معرفة واسعة بالرياضيات والفرائض، فإلى جانب التطور الذي حدث في علـم التـاريخ والإصلاح الديني والموسوعات والعلوم الحكمية (كانت تطلق على الفلسفة والكيمياء والطـب والصيدلة وتقويم البلدان أي الجغرافيا) لم تعد مناخًا مزدهرًا.

وإذا توقفنا عند علم الرياضيات تحديدًا – سنعرف أنه وُجد في مصر في نهاية القـرن الثامن عشر – عدد كبير من العلماء الذين ألفوا في هذا العلم، فمـن الغريـب أن نعـرف أن الشيخ الجبرتي الذي عرف ببراعته في علم التاريخ والتراجم له مؤلفات هامـة فيـه اشـتهر باهتمامه بعلم الرياضة.

كذلك تدلنا مصادر هذه الفترة على عدد آخر من هؤلاء المهتمين بالرياضيات مـنهم الشيخ محمد الغمري الذي ألف في الرياضيات.

فضلاً عن مؤلفات أخرى في الفلك أو الكيمياء، فمن مؤلفاته في الرياضيات ينقل لنـا د. عزباوي عن إسماعيل البغدادي بما عرفناه من القواعد الحسابية في تحـويلات الأكبـاس الرومية إلى الأكباس المصرية والقواعد المقنعة في تحويلات المقادير الأربعة.

ونمضي في نهاية القرن الثامن عشر في هذا السياق مع عدد كبير من جميع الطبقات الذين عرفوا العلوم العصرية والعقلية فهناك عدد من الطبقات الارستقراطية عرفوا باهتمامهم بالرياضة والفلك ورسم عدة مزاول بالجامع الأزهر، بل عرف في مصر العديد من العلمـاء المهتمين بهذه العلوم المشجعين عليها من أمثال الشيخ أحمد أبو الإسعاد السادات الذي عـرف عنه اهتمامه بالفلك.

الأكثر من ذلك أن التاريخ يقول لنا إنه كلف الفلكي الشهير الشيخ مـصطفى الخيـاط بتحريك كواكب ثابتة حتى عام ١٧٦٦ وأعد له من أجل ذلك حجرة خاصة وتكفل بمصروفات أسرته عدة أشهر.. إلخ.

ويلاحظ هنا بشكل ملفت أنه رغم أن علماء القرن الثامن ضيقوا علـى أنفـسهم فـي العلوم العقلية، فإن النظرة العامة ترينا أن هذه العلوم نالت حظًا وافرًا في نهاية القرن الثـامن عشر، واهتم بها عدد كبير من المشايخ أيضًا حتى أن رفاعة الطهطاوي يعلق فيما بعـد عـن هذه الفترة مشيرًا إلى شيخ الأزهر فيقول:

"فانظر إلى هذا الإمام الذي كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر، وكان لـه فـي العلـوم الرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر مما تلقاه من أشياخه الأعلام فضلاً عن أن أشياخه كـانوا أزهرية ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة في الوطنية".

كما جاء في (مناهج الألباب):

وليس من المصادفة في شيء أن يكون الشيخ حسن العطار أكثر علماء عصره تعرفًا على العلوم العقلية، والحث عليها، كثير الأخذ من علماء عصره من المجددين، كثير الرحلات على حيث وجودها، كثير تدريس العلوم العقلية في الأزهر حاثًا تلاميذه على ضرورة الأخذ بالعلوم العقلية، كثير التقرب من الفرنسيين إبان وجودهم في مصر والدخول إلى معاملهم والتعرف على علومهم الحديثة كما زار المجمع العلمي الفرنسي.

ليس من المصادفة أن يكون هذا الشيخ هو أستاذ رفاعة الطهطاوي الذي حثه على الأخذ من العلم والتعرف على ما ينقصنا منه في سياقنا الحضاري وقد لعب دورًا رائدًا هو وتلميذه في القرن التاسع عشر في هذا الصدد، فحين كان تلميذه الطهطاوي على وشك لعب دور تنويري في مصر بعد عودته من بعثته من الخارج كان هو شيخًا للجامع الأزهر عام ١٨٣١.

على هذا النحو، كان العطار أكثر علماء القرن الثامن عشر تفهمًا لدور التطور في العلوم العقلية، وصاحب رؤية واضحة في التغيير يستفيد بها من العلوم العصرية التي يستطيع التطور العربي استيعابها دون حملة عسكرية أو سياسية تقوم بدور سلبي.

يقول د. عزباوي أن هذه النهضة التي عرفتها مصر في أواخر القرن الثامن عشر قد أصيبت بقطع أو انفصال وقتي عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر.

* * *

ما معنى هذا؟

الإجابة أن نهاية القرن الثامن عشر شهدت تطورًا عاليًا.

فقد كان التجديد الفكري يتمثل في الحركة السلفية في الجزيرة العربية، كما كان الأزهر وعلماؤه يعيشون فترة ازدهار اقتصادي يعينهم على الاهتمام بمثل هذه العلوم، فضلاً عن أن التطور الفكري العام كان يسير في خط صاعد سواء في الأزهر أو خارجه، في علوم القرآن أو العلوم الفقهية أو التصوف أو علم اللغة ثم في العلوم العقلية، بل إن دارس هذه الفترة التالية من القرن التاسع عشر لاحظ على سبيل المثال – أن حالة الفلك في مصر في القرن الثامن عشر كانت أفضل منها في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وهو ما كان يمكن أن نتطور معه أكثر.

هذا.. لو لم يأت الغرب!!

* * *

هنا لا بد من التوقف عند قضية بعينها بشكل أكثر اتساعًا، فإذا كنا في الصفحات السابقة آثرنا الإشارة بشكل رأسي إلى أنواع العلوم العقلية فيما يتمشى مع النهضة الغربية للوصول إلى الأثر السيئ الذي واجهته حال اصطدامها بالحملة الفرنسية، فيجب أن نتمهل أكثر عند قضية بشكل أفقي لنرى، إلى أي مدى كان يمكن للتجديد الفكري والإصلاح الديني أن يصل إلى أقصاه في هذا الصدد. وسوف تكون هذه القضية هي قضية التصوف.

كانت قضية الصوفية التي بلغت أوج الفساد حين فشى في حلقات الصوفية ظاهرة الرقص والغناء على الآلات الموسيقية في حلقات الذكر.

ومع أن عددًا من العلماء كان يؤيد هذه الظواهر، فنحن لم نعدم جماعة أخرى بدت معارضة وواعية لهذا الوجه السلبي للصوفية.

لقد وجدت هذه المسألة في القرن السابق لها أنصارًا كثيرين، فعدد كبير من علماء الدين أيدوا الوجه السلبي للقضية، بل ذهبوا إلى حد معارضة المعترض على الممارسات السلبية التي تقوم بها هذه الفرق التي تنتمي إلى الصوفية وترتكب أفعالاً لا علاقة لها بالدين الحنيف، وكانت دعواهم في ذلك – كما جاء في أطروحة دكتوراه في منتصف السبعينيات من تأليف د. عبد الله عزباوي – أن أصحاب الباطن ينظرون إلى حقيقة كل شيء فيسمعون من كل شيء تسبيح الله وتنزيهه.. ولكن أهل الظاهر لا يفقهون، إلى آخر هذه الحجج التي كانت تؤكد الملامح السلبية لمتصوفي هذه الحقبة.

وهذا الوجه السلبي هو الذي رسم– فيما يبدو– الوجه العام المألوف الذي رأيناه في العصر العثماني كله.

لقد ظهرت جماعات صوفية كثيرة ترتكب كثيرًا مما يتنافى مع الدين الصحيح، ويذهب أصحابها في الدفاع عنها إلى حجج كثيرة يحاولون الخروج بها من القرآن الكريم إلى درجة أن بعض مشايخ هذه الفترة المظلمة وهو الشيخ عبد الرحمن العيدروس المتوفى بالقاهرة في نهاية القرن الثامن عشر (١٧٧٨ م) يكتب رسالة يؤيد فيها جواز الذكر والرقص أثناء الذكر (كان الأزهر قد أكد هذا قبل ذلك)، فإذا بالشيخ العيدروس يؤكد هذه المظاهر وينسبها إلى التصوف الصحيح ويبلورها في رسالة سماها (تشنيف الأسماع ببعض أسرار السماع) أيد فيها وجهة النظر الصوفية. (تزخر رحلات الرحالة العرب ومؤرخيها بكثير من هذه الروايات).

هناك أمثلة كثيرة لهذا الوجه السلبي للصوفي، وهو الوجه الذي كاد يصبغ العصر العثماني كله بصبغته، وأصبحنا لا نذكر هذا العصر إلا ونذكر معه هذه الترهات، ومما أسهم في ذلك أن عديدًا من الرحالة الغربيين وقناصل الدول الغربية كانوا يكتبون ويرسلون إلى

الغرب بما يسيء إلى هذه الفترة، فلا يذكر إلا هذا الوجه السلبي، نستطيع أن نجد هذا في كثير من المصادر – وخاصة الغربية منها – غير أن الإشارة إلى بيتر جران بوجه خاص يؤكد لنا هذه الحقيقة.. ونستطيع أن نذكر الرحالة المعروف (فولني) على سبيل المثال لنرى كيف تضمنت رحلته عن الشرق الإسلامي وخاصة مصر الكثير من السلبيات التي ينتبه إليها دون أن يتطرق لوجه منير مضيء، في الوقت نفسه بعضهم كان يكتب عن جهل شديد لما كان في الواقع، وبعضهم الآخر كان يكتب عن سوء نية، وبعضهم الثالث كان لدفع حومته إلى الاستيلاء على البلاد، خاصة أن هذه الفترة عرفت بشدة الصراع الدولي على مصر؛ حيث كانت تشغل حيزًا كبيرًا من التجارة العالمية وعلى هذا النحو، أصبحنا، فإن القرون السالفة للحملة الفرنسية قرون ظلام وفساد وتخلف دون التنبه إلى الوجه الآخر الذي يزداد إشراقًا كلما اقتربنا من القرن الثامن عشر، حتى إذا ما وصلنا إلى النصف الأخير من القرن الثامن عشر، كان التجديد الفكري، ومعرفة العلوم الرياضية والفكرية قد وصل إلى قمته.

في هذا الوقت جاءت الحملة الفرنسية لتقطع الامتداد الذي كان في سبيله لصنع نهضة أكثر خصوصية من نهضة القرن التالي.

بيد أننا قبل أن نصل إلى الحملة لا بد من أن نتوقف عند الوجه الآخر/ المشرق لهذه الفترة، وعن نفس القضية، قضية التصوف..

تؤكد لنا كثير من مصادر هذه الفترة ومراجعيها أن الوجه الصوفي الواعي كان موجودًا وقائمًا.

لقد كان يعلو في بيئة الصوفي المتخلف صوت الصوفي الثائر، ربما كان من أهم هذه الأصوات كان صوت الشيخ المعروف صفي الدين، كان الشيخ محمد صفي الدين الحنفي الذي كان دائب مهاجمة المتصوفة الذين اتخذوا الرقص واللعب دينًا وخلطوها بالعبادة، وراح يؤلف في هذا رسالة سماها (الصاعقة المحرقة) ذكر فيها كثيرًا من الممارسات السلبية من مثل أن يتوجه عدد كبير من هؤلاء إلى الحلقة ويدورون مركبين أيديهم إلى وراء وأمام وهز رءوسهم (كما ذكر د. عزباوي عن جمال الدين الشيال).

ومما يلفت النظر أن كثيرين من مشايخ هذه الفترة اعتنقوا هذا الفهم، وراحوا يهاجمون الممارسات البغيضة للصوفية وأشكالها الكثيرة، ومما يلفت النظر في هؤلاء – كما لاحظ د. عبد الله عزباوي – أنهم كانوا متأثرين بالدعوة السلفية التي سادت في هذه الفترة أكثر، مع أنهم وصلوا إلى درجة تحريم الدخان في بعض الأحيان فإنهم في الوقت نفسه لم يترددوا في مهاجمة هذه العوائد السيئة لمتصوفي عصرهم، وللدكتور توفيق الطويل – رحمه الله – دراسة ضخمة عن هذه الحقبة يشير فيها إلى الوجه السلبي الذي تعدد كثيرًا في هذه الفترة، ومع هذا، فإن الوجه الإيجابي للبحث عن الصوفي الثوري لم نعدمه في تلك الفترة.

إن (الصاعقة المحرقة) يجب أن تلحق – كما كان يرى الكثير من مشايخ نهاية القرن الثامن عشر – بهؤلاء الذين يتخذون سمات خرافة لا تنتمي للدين، وتكرس للجمود والتخلف، وفي هذا نستطيع أن نذكر بعد صفي الدين، الشيخ علي الصعيدي الذي ألف رسالة أخرى سماها (في حكم الرقص والغناء في الذكر) كانت عبارة عن فتوى ضد هذا الجانب السلبي وراح يسهب فيها كثيرًا لتأكيد موقفه متنقلاً بين كبار المشايخ المعتدلين الواعين في عصره، وفي هذه الفتوى ذكر طويل لهجوم حاد على هذه البدع وراح يعددها الواحدة بعد الأخرى واصفًا أصحابها بهذه العبارة (وأنت.. غلبكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزين لكم ما أنتم عليه من القبائح التي لا يقول بها إمام من الأئمة)، وهنا يقول د. عزباوي إنه يمكن اعتبار فتوى الشيخ علي الصعيدي هذه نموذجًا لتلك الرسائل والفتاوي التي ألفها بعض فقهاء القرن الثامن عشر لنقد الطرق الصوفية المغالية، والنهي عما ترتكبه من البدع، بما يلاحظ معه أن التربة المصرية في نهاية القرن الثامن عشر حينئذ كانت قد أصبحت أكثر ملائمة لانتشار دعوات الإصلاح الروحي والاجتماعي.

وهذه الصاعقة التي قام بها العلماء ضد الشعوذات الصوفية (وعجائب الجبرتي زاخرة بهذه المقاومة)، نجدها – أيضًا– لدى عدد من الصوفيين أنفسهم، ومن أشهرهم كان السيد مصطفى البكري (المتوفى ١٧٤٨) وقد تصدى لهذا في مؤلف سماه (السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد) راح ينتقد فيها بعنف هذا الوجه السلبي لهؤلاء الذين يدّعون التصوف "مع أن غالبهم لا يدري الفرق بين الخوف والتخوف".

بيد أن هذه الصاعقة المحرقة أكدت تنامي تيار التجديد الفكري في مجالات أخرى كثيرة، جاوزت التصوف إلى كثير من العلوم العقلية من علم الفلك إلى الصيدلة إلى الرياضيات إلى المنطق إلى الفلسفة(*).. إلى غير ذلك في النصف الأخير من القرن الثامن عشر.

(*) على سبيل المثال:

في الجبر والمقابلة: (الياسمينية "أرجوزة" تأليف، عبد الله بن الحجاج المعروف بابن الياسمين ٥٦١٥/ ١٢٠٤ هـ).

وفي الهندسة: (أشكال التأسيس، تأليف، محمد بن أشرف السمرقندي حوالي ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م.

وفي الفلك "الهيئة": (رسالة السبط في العمل بالربع المجيب "الرسالة الفتحية في الأعمال الجمعية" المؤلف محمد بن محمد المعروف بسبط المارديني ت ٨٩٠ هـ/ ١٤٩٠ م).

وفي الطب: (كامل الصناعة، تأليف علي بن العباس المجوسي ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م).

وانظر على سبيل المثال، عبد الله عزباوي، الحركة الفكرية في مصر في القرن ١٨ بحث لنيل الدكتوراه، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٧٦ رسالة غير منشورة.

الغرب.. وهم التَّنوير!!

لفت نظري، بشكل شخصي، أن عددًا ليس بالقليل من القراء كانوا – رغم الكشف عن الجوانب الدامية للغرب إبان الحملة الفرنسية – يلومونني بدرجة تصل إلى العنف لرفضي الجانب التنويري الذي تركته الحملة (هكذا)، وأنه لولا الغرب لظللنا – يؤكدون في عصبية متكررة– في قبو العصور المظلمة.

إنها الأسطورة التي صنعها الغرب وراح يصدقها.. فرحنا نصدقها.. وأدهش أن يعيش الغرب خاصة الفرنسي منه لحقب بعيدة في وهج الأسطورة، لكن أدهش أكثر لمن يريد عندنا أن يتوحد مع الوهم ويتآلف معه (وهي حالة تعرفها الخبرة النفسية).

ورغم أن وضعنا أقرب إلى هذا عرفناه منذ فترة مبكرة من هذا القرن مع الحلم الأمريكي وأسطورته التي حاول نسجها.. فإننا رغم تتابع وجوه الغرب الأمريكي البشع وامتداداته الفرانكفونية السياسية في العالم – ما زلنا نتحدث عن التنوير مرة.. والغرب المتقدم مرة.. والحضارة الفرنسية المعاصرة مرة ومرة.

إنه وهم التنوير واختراع الأسطورة.

* * *

وقد كان أكثر من عبر عن هذا الجانب في الفترة الأخيرة د. ليلى عنان في كتابها أو ما نشر من كتابها(*) الهام عن الحملة الفرنسية..

إنها عرضت لوهم التنوير الذي نتحدث عنه – لا نزال – ولاختراع الأسطورة التي ننسجها – لا نزال – في وقت بدأ فيه المؤرخون الجدد في فرنسا كـ (فرانسوا فوريه ودينى ريشيه وروجيه دو فريس.. إلخ) ينزعونه من أفكارهم وينقلبون عليه.

ومن هنا، فإن ما سعت إليه هنا د. ليلى عنان يؤكد حقيقة الغرب لنا، خاصة، أن مصادرها في أغلبها فرنسية خالصة.

ثم لا ننسى أنها – كما تخبرنا – تلميذة المدارس الفرنسية، ومن ثم فإنها تحاول – فيما نشر– أن تؤكد خلق الأسطورة الكاذبة عبر هذه المصادر سواء في التاريخ أو الأدب، ثم تسعى – فيما لم ينشر– كما وعدتنا على غلاف كتابها.

(ترى متى ينشر؟ وهل سينشر حقًا؟)

(*) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٨، ج ١.

(حدثتني الدكتورة ليلى كثيرًا أنها تخشى أن يصدر الكتاب بعد عدة أشهر، أو لا يصدر على الإطلاق إشارة إلى الضجة التي يواجهها إثارة الاحتفال بالحملة من جهة حكوميين رسميين ووزير يشاع أنه يستخدم ويسترضي ويعرض له لوحات كثيرة في معرض باللوفر لإرضائه).

لنتمهل عند بعض الصور من وهم التاريخ في القرن الثامن عشر قبل أن نصل إلى توابعه اليوم.

* * *

منذ البداية، نعيد طرح السؤال القديم: هل صحيح ما يقولونه الفرنسيون من أن تلك الحملة الاستعمارية حولت مصر من حال إلى حال؟ وأن مشروعها حضاريًا، ساهمت فيه القوات التي آمنت بمبادئ ١٧٨٩؟... إلخ

وأكثر ما يواجهنا من حيرة في الإجابات عبر هذا الكتاب أن صاحبته انتقلت من تأكيد الأسطورة بشكل نظري إلى مقتضيات البرهنة عليه بشكل عملي فراحت تعرض لأحداث القرن الثامن عشر، وتؤكد أن مبادئ الثورة الفرنسية لم تكن هي – كما هو شائع – المبادئ التي حاول نابليون تأكيده عبر رحلته.

كما يختلط الموقف الغربي في التعامل مع الشرق بين التعالي والكراهية والعنصرية، بالقدر الذي يختلط فيه الدين بالفن بالتجارة.

إن مفردات الثورة الفرنسية لم تكن هي التي دفعت بالحملة للخروج من فرنسا إلى إيطاليا ثم إلى مصر، فالوجه المنير للمبادئ الفرنسية كان له وجه آخر في التعامل مع الشرق، ففي الوقت الذي كان هذا الفكر يدعو للتسامح، تمثلت إحدى نتائجه السلبية في أنه أدى إلى ظهور لون جديد من الصلف الغربي.

وبعد أن كان الدين، أي المذهب الكاثوليكي للمسيحية، يرى حتى عهد قريب منهم، أن من حقه بل من واجبه، قتل الآخرين وحرقهم مثلما كان يفعل مع البروتستانت واليهود والمسلمين، أصبح العقل وتمجيده سبب زهو الشخصية الفرنسية الجديدة، وسبب ازدرائها لكل من يختلف في الرأي معها.

كما كان الفلاسفة يتهمون أعداءهم بالتسلط والتطرف، ثم يحاربونهم بكل الأسلحة المتاحة، وهم ينشدون روح السماحة وحرية الرأي.

ورغم أن فرنسا في القرن الثامن عشر كانت تدين بأفكار التنوير وتعرف مونتسكيو وفولتير ثم روسو وديدرو وفلاسفة الثورات الأخرى: الإنجليزية والفرنسية.. فإن الفرنسيين

كانوا يتكلمون وكأن فرنسا – منذ جمهورية روما الفاضلة والمثالية – هي الوحيدة صاحبة الفضل على العالم، مثل روما التي شكلت أوروبا لقرون حتى العصر الحديث، ويلاحظ الفرنسيون أن ذلك الشعور العام، بأنهم يقومون بعمل فريد عالمي الصدى، لخير الإنسانية جمعاء، صاحب الثورة منذ بدايتها، في أول أشهرها ١٧٨٩، وهكذا أفرزت الثورة بنفسها، منذ البداية، أسطورتها.

وأسطورة الثورة تتخذ أشكالاً أخرى كثيرة منها قضية (حقوق الإنسان).

أليست هي قضية قديمة جديدة تستخدم في عصر نابليون كما تستخدم في عصر بوش، تستخدم في عصر الإمبريالية الفرنسية كما تستخدم في عصر العولمة وعصر الاستهلاك والسيولة.. كما سنرى؟

إنها نفس الحقوق التي تستخدم الآن للحصول على أي مكاسب رأسمالية.

(ما أشبه الليلة بالبارحة حقًا).

وكان أسلوب الثورة في تعاملها مع الأحداث هو النذير الذي سنرى من خلاله كيف تعاملت فرنسا بعد مع مصر أثناء الحملة.

فيذكر التاريخ أنه إبان اشتداد أزمة بين الحكومة وإحدى المدن الفرنسية (فانديه)، صوّت المجلس الحاكم لقرار كانت نتيجته قتل حوالي مائة وخمسين ألفًا من السكان، ناهيك عما كان موجودًا، حتى انتهت المنطقة اقتصاديًا لعقود عديدة، بل وصل الإرهاب بحكومة الثورة، كما تؤكد المصادر الفرنسية – إلى إعدام أربعين ألفًا في باريس وحدها، منهم ثلاثة وعشرون ألفًا أُعدموا دون محاكمة، وثمة مثل آخر يؤكد هذا، ففي حين كانت جزر الهند الغربية الفرنسية، وأهمها تاهيتي تُعامل على أنها جزء من فرنسا، ورغم إعلان حقوق الإنسان، وأول بنوده وهو مبدأ الحرية، لم يطبق على عبيد مزارع القصب هناك فكانت النتيجة ثورة الأهالي ومذابح لا حصر لها.

وهو ما يذّكرنا الآن كيف تستخدم (حقوق الإنسان) كذريعة لخداع الشعوب؟

وما حدث في هذين المثلين حدث لكثير من المناطق الأوروبية نفسها حين استولت عليها فرنسا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وإيطاليا والنمسا ثم مصر.

إن السياسة الفرنسية في أي بلد كانت تحل به كانت تهتم بتطبيق عملية (عصر الليمونة)، وحين كانت تجد ثوارًا في البلد الذي تذهب إليه كانت تهتم أساسًا "باستعمال الثوار وليس خدمتهم".

يحدث هذا كله حين كانت الثورة الفرنسية قد أعلنت عن (حقوق الإنسان) وحرمان الإنسان، في الوقت نفسه، ومن حقوقه، أو حتى اختياره لمعتقداته. تقول د. ليلى عنان: إننا رجعنا إلى مبادئ الثورة و "حقوق الإنسان والمواطن"، هالنا التناقض الصارخ بين المبدأ وتطبيقه، ولكنه الواقع، التاريخ، والنذير لما حدث في مصر بالفعل فيما بعد قبل أن تذهب الحملة إلى مصر، يتقدم الوزير "تاليران" بمشروع غزو مصر لحكومة الإدارة، فيقول:

"كانت مصر مقاطعة في الجمهورية الرومانية، فيجب أن تصبح للجمهورية الفرنسية".

كان كل سياسي فرنسي الآن يذكر جيدًا أن فرنسا هي روما الجديدة وبدون إسهاب فيما كان مفكرو عصر التنوير في فرنسا محل الاستعمار الديني، ومن هنا، يجب أن ننتبه على ما قاله نابليون لجنوده وهو متجه إلى مصر، يقول: "أيها الجند، أنتم في طريقكم إلى فتح سيكون له أعظم النتائج على الحضارة" يتوقف البعض عند كلمة حضارة بينما يندهش البعض أكثر لوجود كلمة حضارة في هذا السياق. وهنا نلاحظ أن أسطورة الثورة تتخذ شكلاً آخر: الحضارة.

* * *

كانت حكومة الإدارة الفرنسية في القرن الثامن عشر الذي سينتهي باحتلال مصر تستخدم كل الألفاظ – بما فيها الحضارة – لتهيمن على العالم، خاصة، وأن ممثليها فيما بعد – نابليون – كان مولعًا بهذا المسلك.

فمصر، رغم أنها تنتمي في ذلك الوقت إلى الإمبراطورية العثمانية.. فإنها كانت تنتمي أكثر إلى حضارة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، ومن هنا، فإن استخدام الحضارة كان لا يتعارض مع المشروع الاستعماري الذي جاءت به الحملة، فالأهرامات – كما يلاحظ– كانت المدارس الخفية لتعليم غيبيات تساعد الكهنة على التوصل إلى أسرار الطبيعة وما وراءها. بيد أن هذه الرؤية شجعت بالقطع على اتخاذ قرار غزو مصر، أو هكذا يقال؛ إذ كانت الرغبة جامحة، بين مثقفي حكومة الإدارة إلى اكتشاف هذا البلد الغامض، مع ضرب المصالح الإنجليزية، وتكوين مستعمرات جديدة.

وكانت فكرة العودة إلى أرض العلوم والفنون مستحبة، وكأن فرنسا بعلمها الجديد وحكمتها الغالية، تغلق هكذا طرق دائرة المعارف بالرجوع إلى المنبع، فيحدث الالتحام الذي يضم تاريخ العلوم فتسيطر عليه.

كانت الحضارة لفظة تسري في حديث من يتحدث عن مصر التي كانت جزءًا من هذا العالم المصري القديم فضلاً عن تصور الشرق (سمي القرن ١٨ بقرن شهرزاد) (*)، غير أن الحلم الفرنسي بتأكيد سيطرته (الرومانية) على العالم وأهم أقطاره المتحضرة (مصر) كان أكثر ما دفع فرنسا إلى هذه الحملة، وحين عاد نابليون بعد عام أو أكثر من حملته من مصر إلى فرنسا، قال أحد المؤرخين المعاصرين أنه ترك مصر لأنه لم يحقق فيها حلمه الشرقي حيث الحضارة التي كانت في مخيلة حكومة الإدارة وقائدها المغوار.

الحضارة هي التي لم تخرج عن الهيمنة على كل شيء بما فيها الحضارة نفسها، ويذكرنا الكتاب أنه بعد عودته من مصر قال البعض: ***"إن نابليون يسير ضد تيار الحضارة الأوروبية، وقال بونابرت نفسه عند عودته إلى فرنسا من مصر: "إنه كان سعيدًا في ذلك البلد البعيد، حيث استطاع أن يتحرر هناك من كل قيود الحضارة الأوروبية"***

إنه يريد أن يذهب إلى بلاد الحضارة وفي الوقت نفسه لا يريد هذه الحضارة التي تقيده كما يدعى إليه في الغرب.

تورد د. ليلى عنان قول أحد الضباط الذي رأى الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون في روسيا، قال الضابط الفرنسي متسائلاً:

"أهذه هي الحضارة التي أتينا بها إلى روسيا! ماذا تكون نتيجة هذه البربرية عندما يشاهدنا العدو ونحن نمارسها؟".

ثم يضيف بعد ذلك عبارة دالة، تقول:

"كلام مماثل سبق أن قيل في مصر".

إنه نسيج واحد تتداخل فيه الحضارة بالبربرية بالأسطورة.

وهنا تصل تجربة الثورة إلى شكل جديد يتمثل في العنصرية.

* * *

لقد تم خلق الأسطورة في القرن الثامن عشر، وأصبحت الحضارة والتنوير والتقدم من القيم التي تُردد، فيراد لها أن تُصدق أو تُقال حتى تصبح القضية قضية اختراق ظلام البربرية التي التقى معها نابليون القائد القادم من باريس (الرومانية) والتي تريد أن تغرس سيف السلام الفرنسي في إمبراطوريتها الجديدة.

إن في الحملة عناصر شتى أهمها ميراث فلسفة التنوير.

(*) انظر: د. مصطفى عبد الغني، شهرزاد في الفكر العربي الحديث، دار شرقيات، ج ١، سنة ١٩٥٥.

في المعرفة حيث تمتزج الرؤية التي تخص فلاسفة التنوير، يصلف المتحضر الـــذي يرى نفسه على قمة الإنسانية، فيرى أن من حقه، بل من واجبه، إذن، السيطرة على البـــشرية كلها، فالبشرية لم تصل مثله إلى هذه الدرجة من النضج والحكمة.

لقد جاءت تجربة الثورة لتجعل معاصريها يظنون أن في استطاعتهم فرض قـــوانينهم على الجميع، على غرار ما فعلته روما قديمًا.

وجاءت – نتيجة هذا التقمص المسيطر على أذهانهم – المغالاة في التعبير والتعظـــيم المفرط الذي جعلهم يرون رجالاتهم على أنهم "آلهة"

إنها عنصرية الغرب.

وعنصرية الغرب تحتاج إلى موضع آخر..

الغرب.. نعم الغرب عنصري!!

لاحظنا – من قبل– أن العنصرية هي عنصر أصيل في الجانب الفرنسي– وقد تمثلت بوجه خاص في القرن الثامن عشر في الحملة الفرنسية على الشرق التي اتسم موقفهـا مـن السكان الأصليين بهذه العنصرية الفاضحة التي اتخذت شكل (المهمة الحضارية) التي يجب أن يضطلع بها الرجل الغربي على أهل البلاد الأقل تحضرًا (وهو ما عرفناه عند الإنجليز "بعبء الرجل الأبيض" وعند الأمريكيين في نهاية القرن "بالعولمة" وإن تغيرت الملامح العامة حسب التوجه الجديد).

وكان أكثر ما يلفت النظر في هذه العنصرية ارتباطها الوثيق بالاستعمار (سواء جـاء في الحقبة الأوروبية وعُرف بالرأسمالي أو جاء في الحقبة الأمريكية وعرف بالإمبريالي) مما سيفرزه الغرب في تطوره المعادي لنا، وقد ذكر لنا التاريخ أن المفكر النازي ألفريد روزنبرج قال أثناء محاكمته في نومبرج، بوضوح شديد: إن العنصرية ليست غير جـزء أصـيل مـن الحضارة الغربية الحديثة، ولم يكتف بهذا، بل راح يضيف، وهو يشخص إلـى قـضاته: أن هناك علاقة عضوية بين العنصرية والاستعمار.

هذه شهادة شاهد من أهلها تكررت كثيرًا.

وهي شهادة نعثر عليها في كثير من مصادر القرن الثامن عشر والتاسع عشر لـدى أدباء فرنسا ومؤرخيها منذ الحملة الفرنسية حتى اليوم (وهو ما نجد أحسن تمثيل له في كتاب د. ليلى عنان، الجزء الوحيد الذي صدر عن الحملة الفرنسية إلى ما بعد منتصف عام ١٩٩٨) كما تقدمه لنا.. في وضوح صحف الحملة نفسها التي نُشرت خاصة في مصر وفي مقـدمتها "كوريه دي ليجيبت"، كما ترصده لنا هذه المادة الغزيرة من الدوريات والنشرات والكتب التي صدرت منذ هذا الوقت حتى اليوم في جميع أنحاء الغرب العنصري..

ولكن: ما هي العنصرية؟

تقدم لنا المعاجم ودوائر المعارف تعريفات كثيرة للعنصرية وخاصة دائرة المعـارف الفرنسية ثم دائرة المعارف البريطانية التي فزعت حين طالعت مادة العنصرية في كل منهما، أيضًا مخطوطة موسوعة د. عبد الوهاب المسيري التي لم تنشر بعد وغير ذلك. وعبورًا فوق مصادر عديدة فإن التعريفات تتعدد وتتحدد عند الانتماء العرقي، وبـأن العناصـر العرقيـة تتفاوت نوعيًا لا من حيث الشكل وحسب وإنما مـن حيـث القـدرة الفكريـة والاجتماعيـة والأخلاقية، ومن هنا، هناك عناصر بشرية متفوقة وأخرى وضيعة، وهو ما يصل بنا إلى أن هناك تحيزًا وتفرقة حسب الانتماء العنصري.

وهذه العنصرية لها مراتب كثيرة، فهي تبدو في حين بالنسبة للأقليات المتميزة، وتبدو في حين آخر للتفرقة بين العبد والسيد تبعًا للجذور التي تحدد – في كثير من العلاقات، وما يهمنا منها هنا هذه العلاقة القائمة بين الاستعمار وبين أهل الشعوب سواء أكانت مُستعمرة عسكريًا أو مُخترقة سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا.

وترى بعض المصادر (انظر دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية) أنه يمكن القول بأن عهد العلاقات بين الأجناس بدأ مع التوسع الذي حققته القوى الأوروبية الكبرى فيما وراء البحار ابتداءً من القرن الخامس عشر فصاعدًا لكن هذا الاحتكاك الأول بين الأجناس لم يتم في إطار التفوق التكنولوجي الأوروبي، وبعد ضرب أمثلة كثيرة لهذا يتضح لنا أن الإحساس بهذه العنصرية بدا أكثر ظهورًا في منتصف القرن الثامن عشر في الغرب؛ حيث حققت الدول الأوروبية قدرًا كبيرًا من التقدم التكنولوجي خاصة واندفعت بجيوشها إلى أرجاء العالم وكسبت معظم المعارك العسكرية، وهنا بدأ الأوروبيون يدركون سر تفوقهم (المادي) وبينما كانت أحاسيس التفوق في الماضي تستند إلى الإدعاءات الدينية والفكرية التي يطلقها الإنسان على نفسه (وهي إدعاءات فكرية ذاتية واهية)، بدأت أوروبا بعد الثورة الصناعية ترى أن تفوقها يستند إلى حقائق مادية مثل الآلات والمدافع.

وفي الوقت الذي كانت فيه الحملة الفرنسية على مصر تصل إلى الإسكندرية في صيف ١٧٩٨ كان الإحساس بالتفوق العلمي يستند إلى إدعاءات دينية وفكرية أطلقها الغرب على نفسه.

وهنا، نستطيع أن نتوقف عند هذه المرحلة، الممارسة العنصرية الغربية ضدنا أثناء سنوات الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وتتحدد في إدعاءات حضارية ودينية كثيرة نعثر عليها في الممارسة الفعلية للغرب الفرنسي إزاء الشرق.

* * *

إن مراجعة تاريخ الثورة الفرنسية نفسها، لا يمنعنا من التوقف عند هذه الملاحظة الفعلية، بأن العنصرية تظهر – منذ البداية– بين أبناء الشعوب الأوروبية نفسها، قبل أن تفرق هذه الشعوب بين رقبتها الحضاري وعبثها الجنسي وإن بدا أن العنصرية تأخذ شكل إدعاءات مادية.

إن الثورة في طريقها لتحرير الشعوب الأوروبية لم تهتم كثيرًا بأن تتعامل بشعارات الثورة مع الشعوب التي تحررها، وقد لاحظ العديد من أبناء هذه الشعوب ذلك وتحدث عنه، وفي كتاب د. ليلى عنان الأخير تلاحظ أنه لم يكد يمضي عام على قيام الثورة حتى تغير

شعارها تمامًا، فقد أصبح شعارها بعد عام ١٧٩٤ "الحرية والمساواة" فقط. بعد إسقاط كلمة "الإخاء" كما نرى ذلك جليًا على أوراقها الرسمية! وكان لحكام الثورة في هذا الشأن منطق قوي لا يجادل، يقول: أيصح أن تحرر فرنسا هذه الشعوب على نفقتها الخاصة؟

لم يصدق أحد أن المقاطعات (الدول) التي كانت تجتاحها جيوش الثورة قد تحولت إلى (أخوات) كما يردد، فإن هذا الشعار (الإخاء) انتفى تمامًا من التعامل مع ثوار بلجيكا أو معاقبة ألمانيا.. إلخ.

والواقع أن ذلك لم يكن مرجعه الحاجة للمال فقط، وإنما هو الإحساس بقيمة الحضارة الفرنسية، ولنقل أنه استخدام بأية إدعاءات مادية من أجل تأكيد الحس العنصري الذاتي لدى الفرنسيين.

والذي يراجع المصادر العربية أو الفرنسية يلاحظ أن فرض عقوبات مادية ثقيلة أو الإقامة بالنهب المادي المنظم للشعب المصري لا يحمل وراءه الحاجة المادية وحسب، فقد كانت الجيوش الفرنسية في مصر تحتاج -بالفعل- للمؤونة، وإنما كانت طريقة فرضها، وطريقة تحصيلها تتسم بعنف ناشئ عن عنصرية بغيضة لا تعود إلى ضرورة التحصيل وحده، بقدر فرض سيطرة الرجل الغربي الآتي من الشمال على أبناء الشعب الأقل حضارة منه، وكثيرًا ما لاحظنا أن إساءة الفرنسيين لعلماء الدين أو النساء لا تخلو من هذه العنصرية التي كانت تظهر في كثير من الأحيان، إنها المهمة الحضارية التي جاءت الحملة من أجلها.

* * *

وكما اتخذت العنصرية ادعاءات مادية، كذلك اتخذت ادعاءات دينية وأيديولوجية. وهي ادعاءات وإن امتزجت بزعم التنوير وتأكيد الأسطورة – كما لاحظنا – فإنهم لم تخل من الكشف عن هذه العنصرية بوضوح شديد.

ومراجعة اللوحات التي كانت تُرسم لنابليون في مصر أو بعد رحيله بسنوات، كانت لا تخلو من هذه العنصرية التي تمتزج بالبطولة الفردية وتأكيدها، فمن يعرف تفاصيل اللوحات التي نجدها على جدران المعابد وداخل قبور الفراعنة وتسجيل انتصاراتهم يلحظ شبهًا كثيرًا بينها وبين اللوحات التي أمر نابليون أن ترسم له إبان وجوده في الشرق (رسمت فيما بعد في أوروبا).

كثيرًا ما نجد الفرعون المصري – أيًا كان اسمه-، وهو يقف وسط اللوحة أو في الجانب الأبرز منها بينما الآخرون وفي الغالب يكونون من الأسرى يتوسلون إليه أن يعفو عنهم، بينما لا يغادر يده سلاحه وهو يتعامل مع أعدائه بقسوة، وهو ما نجده في كثير من

اللوحات التي يقف فيها نابليون على قدميه أو على حصانه، بينما عدد من الأسرى، لا يمنع أن يكون بينهم بعض علماء الدين ينظرون إليه في خوف أو خشوع.

وفي الكورييه – صحيفة نابليون في مصر– كثيرًا ما نقرأ (قرار من القائد العام) تشير إلى مثل هذه المشاهد، وهي تمنح أو تمنع بعنف مما يوحي بنبرة العنصرية العالية، وعلى سبيل المثال ففي صفحة هذه الجريدة وتحت رقم ٦ (السنة السادسة للجمهورية) يقرأ كثيرًا من أوامر نابليون برفع العلم الفرنسي مثلث الألوان على الأبنية وعلى صدور العلماء بقوله أنه حين أحس القائد العام – نابليون– بارتياب أهل القاهرة في تنفيذ هذا القرار فإنه – ولاحظ اللهجة، وخاصة أن نابليون كان يشرف على كل كبيرة وصغيرة في الصحيفة– (جمع حوله أعضاء الديوان وبعض الرجال من ذوي النفوذ لدى جماهير الشعب. وبعد أن استمع إلى اعتراضاتهم فندها بمهارة بل واستمالهم إلى دعوته إذ وصل به المقام إلى الخوض معهم في مناقشات دينية بهرت عقول الأتراك وأقنعتها) ثم يضيف (وبعد محاضرتين طويلتين ارتدى أعضاء الديوان بأنفسهم الشال المثلث الألوان في حضرته وأكدوا له أن جميع سكان مصر سوف يرتدونه عما قريب).

في حين أن الجبرتي – وهو معروف بميله إلى الفرنسيين أكد في أحداث نفس اليوم ربيع الأول أن نابليون حين حاول أن يضع هذا الشال على كتف الشيخ الشرقاوي "رمى به في الأرض، واستعفى وتغير مزاجه، وامتقع لونه، واحتد طبعه.." أكثر من عالم استاء من هذا الشال أو العلم إلى درجة أن الشيخ السادات قام – في حضرة القائد العام– بنزعه وإلقائه أرضًا.

ونستطيع أن نصل إلى العدد (١١) من السنة السابعة للجمهورية من نفس الصحيفة لنقرأ بالحرف الواحد عن نابليون (نحن نعطي للعالم أول مثل للفاتح المشرع، وعندما حضرنا كان الفاتحون يتبنون قوانين المهزومين، فلننتصر عليهم بعقولنا –لاحظ أنه يتحدث عن العقل الفرنسي – وهو نصر أصعب مثالاً من نصر السلاح فلنتمثل بنابليون ولنكن متفوقين على الشعوب الأخرى كما هو متفوق على جنكيز خان).

إن هذا يشير أولاً إلى تفوق العقل الفرنسي، ثم هو يشير إلى تفوقه الذي يتقرب به من الفرعون مرة، ومن أي حاكم متميز حضاريًا في المنطقة، وليس مصادفة أن نجده يذكر كثيرًا في ذكريات بسنت هيلانة اسم الإسكندر أكثر من مرة في معرض التفوق الحضاري عن غيره، وهو هنا يصل في التفوق مداه، حتى ولو كان التفوق يصل إلى التساوي بحاكم طاغية مثل جنكيز خان؛ إذ إن التفوق هنا يشير إلى أنه يزيد عليه في القوة والتحضر أيضًا بيد أن

التفوق العنصري يجاوز التفوق الحضاري إلى التفوق الديني وهنا نصل إلى الادعاءات العنصرية الدينية.

* * *

إن نابليون كان يرى في الدين وسيلة لا غاية.

لم يكن يعطي للدين أهمية أية أهمية إلا بالقدر الذي يحقق له طموحه العنصري.

في ذكريات سنت هيلانة فقرة، يقول فيها حين يتذكر وجوده في مصر، وقد تحدث البعض عن أحد القادة الصليبيين في الشرق: (إن لويس التاسع عشر أنفق ثمانية أشهر في الصلاة، وكان أجدى أن ينفقها في الزحف والقتال واحتلال البلاد).

وعلى ما في ذلك من زهو صليبي – بغض النظر عن تدين بونابرت – فقد كان يخفي زهوًا عنصريًا لا يمكن إغفاله.

لقد كان يستخدم الدين – بغير تردد – لتأكيد أسطورته التي لم تكن لتخلو من عنصرية بأية حال.

وتصل العنصرية إلى أقصاها حين يختلط استغلال الدين باختراع الأسطورة فحتى بعد رحيل بونابرت، يجيء العديد من الكتاب المؤرخين ليتحدثوا عن الحرب النابليونية في الشرق، فيرى أحدهم (عام ١٩٣٢) أنها تكاد تكون حربًا صليبية جديدة؛ إذ إنه يقول عن أحد انتصارات الجيش الفرنسي في الشام "ستة آلاف فرنسي هزموا سبعة وعشرين ألف تركي! وفي هذا المكان نفسه، في الخامس من يوليو سنة ١١٨٧، هزم المسلمون جي دي لوزينان! يا له من ثائر"، وفي أحد ثورات المصريين على الفرنسيين يذكر نفس الكاتب أن نابليون كان في عكا، لماذا؟ يسأل ويجيب بلهجة عنصرية عالية: "يثأر لهزيمة الصليبيين في القرن الثاني عشر".

إن لوحة تسمى (مرض الطاعون في يافا) للفنان جروتشي على سبيل المثال بهذا المعنى، وتلاحظ د. ليلى عنان أن من يرى بونابرت واقفًا وسط اللوحة (وهو دائمًا وسط كل اللوحات). والضوء مسلط عليه، وهو يلمس بيده يد أحد مرضى الطاعون الملقى على الأرض، لا يسعه إلا أن يتذكر السيد المسيح (عليه السلام) عندما لمس يد الأبرص فخلصه من مرضه، والفارق الوحيد – كما تؤكد – أن مرض الطاعون من الجنود الفرنسيين لم يشفوا من مرضهم، كما نعرف أنه بعد ذلك بعدة سنوات حين أعيد رفات نابليون إلى باريس عام ١٨٤٠ بدا وهو يخرج منتصرًا من القبر، وكأنه بالفعل السيد المسيح كما تصوره كثير من اللوحات الدينية على مر القرون.

والذي يتمهل عند ذكريات (سنت هيلانة) يجده يغلو في حلمه العنصري الذي لم يتحقق. نقرأ في أحد العبارات وهو يوضح رؤيته للعالم "أوروبا تغزو إفريقيا من الجنوب، والجنس الآري سيغمرها في المستقبل كما غمر أمريكا.. الجنس الآري سيغمر الكرة الأرضية ويحكمها، ونعم.. الحضارة ستكفر عن جرائم الغزو أو دنس الهدف".

وهنا تسأل د. ليلى عنان "ألا يذكرنا هذا الجنس الأوروبي مشروعه بالفلسفة النازية"؟

وهو سؤال على بداهته يؤكد **عمق العلاقة بين العنصرية والنازية.**

الملاحظة التي تلفت النظر في هذا كله أن مائتي عام على مجيء الحملة وذهابها، لم تخل من هذه العنصرية ممثلة في كتاب نابليون أو مؤرخيه، منهم أسماء ما زلنا نتعامل معها كعلامات مضيئة، فنحن لا نعدم هذه العنصرية العنيفة عند شاتوبريان بالقدر الذي نجدها عند هيجو وبلزاك وستندال ولامرتين، كما نجدها عند المؤرخين من أمثال – والاستشهاد أيضًا من كتاب د. ليلى عنان– ميز وليجران وباستر وميشان وبورجو وسبيلنان وترانييه ركار مينياني.. وغيرهم.

وهو ما يشير إلى أن العنصرية لم تكن رهنًا بمجيء نابليون وحلفاءه إلى مصر نهاية القرن الثامن عشر وإنما قبل ذلك وبعده أيضًا.

وهذه حقيقة أصبحت في حكم البدهيات الآن بحيث لا تحتاج لمن يؤكدها.

بقى بدهية أخرى لا تحتاج لتأكيد، إنه إذا كانت العنصرية القديمة تعبر عن هذه الإمبريالية الاستعمارية، فإن العنصرية الجديدة تعبر عن النظام العالمي الجديد الذي يتخفى وراء العولمة وتأخذ آلياته شكل السيولة الشاملة وفي الوقت نفسه الاختراق الثقافي وعنفه المعرفي الجديد.

إن الإمبريالية الغربية قديمًا والعولمة الآن هما وجهان لعملة واحدة هي العنصرية.

المنصة.. والكلمات المتقاطعة..!!

اقترب الشاب من المنصة، في خجل، كاد يتعثر، حين بدأ الحديث عن حضارة الفرنسيين المزيفة والأثر السلبي الذي تركته الحملة؛ ذاب خجله، وراح ينتفض غاضبًا رافضًا.

كان أكثر ما لفت نظري أنه راح ينظر – من آن لآخر- إلى المنصة شزرًا في وقت ارتفعت فيه موجة من التصفيق الحاد، أدركت أن المدرج الذي يحتوي على أكثر من ألفي طالب وطالبة من كليات الجامعة – أدركت أنهم يشاطرونه الرأي، وأن بعض (الأساتذة) الذين جاءوا من مصر لم يوفقوا في هذا الوقت، ولم يختاروا له المكان.

شكرني الطالب على السماح له بالتعبير.. عاد إلى المدرج، حين عدت من كفر الشيخ، كانت في انتظاري نفس المفاجأة.

لفت نظري غضب د. ليلى عنان وهي تتحدث عن الزميلة (الأستاذة) التي تصر على وجود هذا الأثر الفرنسي، أكدت لها – أضافت د. ليلى – أن الحملة، استعمارية، في المقام الأول، عادت تلح أن لها آثار إيجابية، ولا بد.. إلخ.

تخيلت الحركات الغضبى للدكتورة عنان وهي تنظر للأستاذة شزرًا. رحت أحدث نفسي عن البدهيات، وقضايانا المكررة التي نثيرها من آن لأخر (هي هي) وعن الكلمات المتقاطعة التي لا تحتاج لجهد كبير.

* * *

أسرعت أقول لنفسي أن تلك ليست حالات فردية، إنها حالات عدد كبير من (الأساتذة) الذين جاءوا من مصر إلى كفر الشيخ، أو عدد كبير من الذين يفتون بغير علم – في الغالب- في مجالس القاهرة ومنتدياتها العلمية فلا يكفون عن الحديث عن التأثير الإيجابي للحملة وبإصرار شديد وهي حالة يُعرف صاحبها عند علماء النفس بصاحب الرأي الواحد في حين لم يقرأ أي منهم سطرًا واحدًا من تاريخ الحملة، أدركت أكثر وأكثر أنها حالة من تزييف الوعي التي تتم بين ظهرانينا، ولكن:

لماذا هي (تزييف الوعي)؟

لنقل – جدلاً – إنها حالة تغييب الوعي أو غيابه.

وهذه الحالة لم أجدها في كفر الشيخ أو القاهرة أو الإسكندرية أو أي إقليم من أقاليمنا المصرية فقط، وإنما هي – إذا جاوزنا الجغرافيا – موجودة في التاريخ أيضًا.

ليست الجغرافيا فقط، وإنما التاريخ.

واخترت أن أتوقف عند التاريخ وعند مثال دال أرى فيه كيف تتم حالة تغييب الوعي لأجيال كاملة ولقرن من الزمان.

يبدو أننا لا بد أن نعود إلى المنصة.

* * *

في بحث أحد أساتذة ندوة: (تطور التفكير العربي) التي أقيمت بكفر الشيخ حول (صناعة الأيديولوجيا..) توقفت فيها عند الحملة الفرنسية، عبر الكتاب المدرسي، قدم د. كمال مغيث، مسحًا للكتاب الذي يدرس في المرحلة المتوسطة – الثانوية- منذ عام ١٩٠٩ حتى هذا العام ١٩٩٨ راح يرصد فيه كيف قدم الأساتذة، أساتذة التاريخ في الغالب، الحملة الفرنسية للطلاب المصريين منذ بداية القرن العشرين حتى نهايته.

في عام ١٩٠٩ قدمت وزارة التعليم كتاب (خلاصة تاريخ مصر الحديث) أشارت فيه إلى دخول الجيش الفرنسي إلى مصر، وسعى نابليون في مصر إلى إقامة الديوان ليكون هدفه فض الخصومات.

وبعد إشارة عابرة للشام أشار إلى دخول شخص حلبي على كليبر فقتله (هكذا دون ذكر اسم سليمان الحلبي أو ذكر الدور البطولي الذي لعبه لاغتيال كليبر الذي كان أكثر قسوة من سواه على المصريين وأكثر دموية ضد الشعب الأعزل..)

لم نجد إشارة أو تمهيدًا للحملة في هذه الفترة الخصبة التي تتحدث عنها الوثائق في مصر، وإنما تقليل من دور الشعب المصري إزاء الحملة الحضارية التي جاءت لترسم لنا أشكال ديمقراطية لم نكن لنعرفها لولا مبادرة بونابرته – هكذا أسموه.

باختصار كان الحديث عن الحملة أكثر من تصدي الشعب لها.

ورغم أن الجبرتي كان قد رحل منذ قرابة قرن من الزمان (عام ١٩٠٦) فإن شبحه ما زال قائمًا وراء محمد أفندي دياب المؤلف.

فالفرنسيون – رغم أنه ذكر بعض مساوئهم، لم تخل أفعالهم لديه من تأثير حضاري ملموس، استمر في عديد من الظواهر، وفي مقدمتها هذا الديوان. وهو ما يذكرنا أيضًا بالجبرتي – سامحه الله – الذي وصف الحلبي بأنه (من شذاذ الآفاق).

إنه الأثر الفرنسي المجيد الذي يتحدث عنه كتاب يقدم لطلاب المرحلة التوجيهية (الثانوية) حيث كان التأثير الفرنسي في الحياة العامة ما زال مستمرًا رغم أن البلاد كانت تشهد الاحتلال الإنجليزي.

وإذا كنا لا نعرف الكثير عن هذا المؤلف فإن الكتاب الذي قرر بدلاً منه عام ١٩١٦ كان لمؤرخ معروف هو سليم حسن الذي راح، في كتابه الجديد، يضرب على وتر التأثير الظاهر.. إنه يذكر ثورة فرنسا لينقل بسرعة إلى الحملة الفرنسية فيتوقف عند مآثرها: المجلس العلمي الفرنسي، فعالية الثقافة الفرنسية في كافة العلوم وفائدة كتاب (وصف مصر) وروعته، ويسهب في الآثار الإيجابية للحملة. ولا تنسى الوزارة أن تضمن الكتاب صورة نابليون وهو يقف أمام الأهرام بينما في أمامية الصورة، وتحت قدمي بونابرت لفائف المومياء.. إلخ.

وننتقل بين أعوام كثيرة يتغير فيها الدارس في كل مرة ولا يتغير الانبهار الوزاري (نسبة إلى أساتذة الوزارة) بالحملة وهو ما نجده في دروس أعوام ٣٣، ٥٤، ٥٩، ٦٢، ٦٩-٧٤ حتى نصل إلى عام ١٩٨٩..

تتغير العنوانات لكل كتاب حسب المرحلة التي تمر بها البلاد ويظل المضمون واحدًا، تتغير العبارات أو بعض الأحداث ويظل المضمون هو هو.

في عام ١٩٣٣ – على سبيل المثال- نجد كلامًا عن مصر الحديثة ومصر في هذه الفترة كانت تتهيأ أكثر للاندماج في الرأسمالية الغربية رغم بزوغ الفكر الإسلامي في كتابات كتابها، في عام ١٩٥٤ يزيد الحديث عن تاريخ مصر المعاصر مع بقاء المضمون.

في عام ١٩٥٩ نلاحظ تركيزًا على الوجود العربي في المنطقة حتى يصبح عنوان الكتاب هو (تاريخ العرب الحديث)..

ندرك أن أحداث الخمسينيات تدفع بالبلاد إلى الوحدة العربية أو تسعى إليها ورغم حدوث الانفصال بين مصر وسوريا، وصعوبة المخاض القومي، فإن الدارس – العنوان لا يتغير في السنوات ٦٢، ٦٩، ٧٤ خاصة والحديث عن فعل نابليون يمضي في اتجاه الإفادة من مقومات العروبة، وتأكيدها وهو ما يلقي في طاحونة تأثير الحملة في اتجاه الفكرة العربية التي لم تكن واردة في وقتها.

ومراجعة هذه الكتب المدرسية التي توجد نسخًا منها في المتحف التعليمي، نلاحظ، أن ثمة تأثيرًا مؤكدًا موجودًا لكل هذه الكتب على مدى قرن على وجه التقريب لم أقتنع كثيرًا بكلام الباحث، وهو كلام مرسل فوق المنصة. مدون ببعض الكروت البحثية، حين سألته عن هذا التأثير، كتب إلى يقول:

"إن هناك تأثيرًا فرنسيًا للحملة على مصر.. مع الاختلاف في الموقف من هذا التأثير.. غير أن صناعة الأيدلولوجية تغير الأحداث ولا توقف الأثر، فمن الممكن – كما يؤكد – أن تصنع أيديولوجية بدون الوعي الكامل بها أو يتصور أنها الموقف الصحيح.. فمثلاً في ظل ثورة يوليو تهتم الثورة بأثر الثورة الفرنسية فيما يتعلق بالقضاء على الإقطاع وإعلان

الجمهورية فقط دون الإشارة إلى الدستور والتنوير والجمعية الوطنية وحقوق الإنسان مما جاء به نابليون".

الأثر ظاهر إذن – كما يقول – وإن تغير صنع الأيديولوجية حسب كل عنصر.

اكتشفت أن الخلاف بيني وبين الأستاذ جد كبير. حملت أوراقي وغادرت الدلتا إلى القاهرة.

* * *

في القاهرة حمل إلى البريد رسالة باحث قضى حياته عاملاً في دور الوثائق قبل أن ينتقل إلى الجامعة ليعمل كأستاذ، راجعت الرسالة أكثر من مرة، آثرت أن أنقل أهم فقراتها.

جاء في رسالة د. زين العابدين شمس الدين نجم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الدراسات الإنسانية، بعد الإشارة لحملة بونابرت الأول، وأنا أنقل هنا من رسالته بالحرف الواحد:

(وفي أوائل عهد إسماعيل عملت فرنسا على إنشاء مستعمرة فرنسية في منطقة قناة السويس، وكان الإمبراطور. نابليون الثالث متحمسًا لهذا المشروع؛ حيث أراد إنشاء مدينة فرنسية عند مصب القناة على ساحل البحر المتوسط وبدأت فرنسا خطوات جادة لإنشاء هذه المستعمرة داخل الحدود المصرية على أن تكون غير خاضعة لسلطة الحكومة المصرية أو قوانينها، ويكون أكثر السكان فيها من الأجانب المقيمين في مصر، فقد اقتطعت فرنسا مساحة كبيرة من الأراضي تفوق بكثير المساحة المقدرة لشركة قناة السويس؛ مما أثار الشكوك حول النوايا الاستعمارية لفرنسا برغم الإيضاحات التي قدمها ممثلو فرنسا في محاولة لتبديد هذه الشكوك، وعندما أحس الخديوي إسماعيل بخطورة الموقف واجه الأمر بحزم ورفض احتفاظ الشركة بمساحة تزيد على ٢٤٠٠ فدان قابلة للزيادة فيما بعد كنواة لهذه المستعمرة التي كانت تلقى تأييدًا كبيرًا من الحكومة، تعامل مصر كأنها دولة مهزومة في حرب وتتصرف في الأراضي المصرية وفقًا لمخططاتها. وأسرع شريف باشا ناظر الخارجية بالكتابة إلى وكيل الشركة ينتقد تصرف الشركة في الأراضي التي لا تملكها. بمقتضى حكم الإمبراطور الفرنسي وإزاء رفض مصر الانصياع لهذه المحاولة؛ فقد أقر الإمبراطور في النهاية بأحقية مصر في التصرف في أراضيها، وهكذا فشلت هذه المحاولة لإقامة مستعمرة فرنسية في مصر كما سبق أن فشلت الحملة الفرنسية في السيطرة على مصر).

لا تنتهي رسالة أستاذ التاريخ. وإنما تفيض بما يذكرنا بقسوة الحملة الأولى على أهالينا في نهاية القرن الثامن عشر من انتهاك الحرمات والبيوت والأعراض وسلب الأملاك والممتلكات وتدنيس المقدسات رغم ما كان نابليون يردده في بياناته المخادعة إلى الشعب.

ويغرينا هذا كله بالمقارنة بين نابليون الأول وحفيده، فنابليون الأول في الطريق إلى مصر قال – كما جاء في مذكراته: "**سأذهب لاستعمر مصر**".

وها هو الحفيد يسعى للمرة الثانية في أقل من نصف قرن لإقامة مستعمرة فرنسية بسفور شديد، وبإدراك لا ينقصه التحايل أو الخداع.

الأول: أراد أن تكون مصر كلها مستعمرة.

والآخر: أراد أن تكون قناة السويس مستعمرة.

ويغرينا هذا كله بالمقارنة بين الفرنسيين فيما مضى والفرانكفونيين والأمريكيين الآن.

* * *

يغرينا هذا كله لنتذكر الحملة الأمريكية التي تواصل وقاحتها وتعاونها مع الصهاينة ضد أهالينا في كل البقاع العربية (لم يختف الدور الفرنسي أغلب هذه الفترات منذ حملة ١٨٩٧ مرورًا باحتلال الجزائر وتونس مرورًا بسوريا وسايكس بيكو وصولاً إلى نكبة ٤٨ وعدوان ٥٦... إلخ)، وضرب الحائط بمائة وخمسين قرارًا لصالح العرب من مجلس الأمن، والعودة ببغداد إلى العصر الحجري، وتكريس التطبيع مع الصهاينة منذ نادي بيريز بالسوق الشرق أوسطية، ونتنياهو بالأمن لا السلام، وكلينتون بحماية الأقلية وحقوق الإنسان.. إلخ.

هل يحتاج هذا كله لكلمات متقاطعة..؟

* * *

قبل أن أنهي هذه السطور تذكرت الدراما التي كانت تعرض (يوميًا) في الشهر الفضيل من عام ١٧٩٨ ضد الفرنسيين و (الأبطال) في مصر في مواجهتهم..

كانت دراما التليفزيون تعرض بعد قرنين كاملين من الزمان على مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر.

كانت الحملة قد جاء في نهاية القرن الثامن عشر.

وها نحن في نهاية القرن العشرين.

ترى ماذا حدث في هذين القرنين من أحداث جسام حتى نرى الحملة في ضوئها، تذكرت أنني كنت أردد المقاطع الأولى بشكل لا شعوري له دلالة.. كان المقطع يقول:

فمصر لم تخضع

ونحن لن نخدع

كنت أعيد المقطع فأقول:

فنحن لن نُطبع

كنت أبدأه دائمًا – بشكل لا شعوي دون أن أحس – حتى – بإعادة نطق الكلمة بشكل مغاير هكذا:

فنحن لن نُطبَع

وكنت حين أكتشف ذلك أردد بيني وبين نفسي: لن نُطبَع مع من؟

كانت قضية التطبيع مع الصهاينة تردد وتفرض نفسها منذ سنوات، ربما منذ عقدت اتفاقية كامب ديفيد في السبعينيات.

إذن، هل التطبيع هنا يقصد به عدم التفاهم مع الصهاينة.

كنت أدرك وإن لم أصرح لنفسي بشكل واضح أنني/ أننا لن أطبع مع العدو الصهيوني الغربي.

وهل هناك.. كنت أعود إلى الأسئلة صامتًا دائمًا.

وهل هناك علاقة بين صهاينة القرن العشرين والغرب كله؟

بل السؤال الذي يجب أن يقال بدون تفكير:

أو ليست هناك علاقة بين الغرب والصهيونية؟

إنه الغرب..

سواء وجد في شكل الصهيونية التي يحكمها ملوك اليهود أمثال نتنياهو وباراك وغيرهما الآن، أو الصهيونية التي تتلبس ثوب الغرب ويحكمها أي حاكم غربي في البيت الأبيض هناك أو البيت الأسود في أية عاصمة أوروبية..، لا فارق.

ثم قد ينصرف ذهني، وهو ينصرف بالفعل، إلى تطبيع من نوع آخر، التطبيع من الداخل، مع هؤلاء الذين يريدون منا أن نطبع مع الغرب ونلعب معهم لعبة المنهزم دائمًا.. ومن هنا، ينتفي البحث أو التفتيش عن القصد من التطبيع.

نعم، نحن لن نطبع خارج المنصة أو فوقها.

لن نطبع مع الخارج.

كما لن نطبع من الداخل.

فما زال الخطر نتاج الداخل أكثر من نتاج الخارج.

ونتاج الغرب البعيد (= الشمال) كما هو نتاج الغرب القريب (= الـصهيونية) فـي فلسطين العربية.

العدو واحد معروف في الداخل أو الخارج.

من الذي أثر ومن الذي تأثر؟

منذ بدء حديثنا عن أثر الحملة – السلبي – توالت علينا ردود أفعال كثيرة، تشير – في أغلبها– إلى الدور السلبي الذي يلعبه الغرب معنا، أو علينا. ومن ذلك تلك الرسائل التي تشير إلى الكتابات الكثيرة التي تركها الرحالة من شتى الأجناس الفرنسيين منهم أو الألمان أو حتى الإنجليز..

ويلاحظ أن سيل هذه الردود زادت عقب ما نشرناه من قبل بعنوان.. (لو لم يأت الغرب) كرد فعل لهذا التيار الرافض لأي حركة أو تطور كانت تشهده البلاد قبل أن يأتي الغازي الفرنسي إلى بلادنا.

وهذا ليس مبالغة – فيما نرى – بقدر ما هو تقرير لتاريخنا الوطني فما زال هناك تيار – رغم ضآلته– يرى أننا لم نعرف عنصر التنوير فقط، اللهم إلا على يد بونابرت، ناسيًا أو متناسيًا، أن بونابرت لم يكن ليريد إلا أن يكون الإسكندر الجديد بفتوحاته للعالم (وذكرياته في منفاه تزخر بذكر هذا الاسم مقترنًا بفتوحاته) وأن بونابرت لم يكن إلا ابن الثورة الفرنسية التي كان هدفها التغلب على إنجلترا العدو اللدود لها لتلعب بدورها دور روما في العالم القديم، حتى إذا ما فشلت في غزوها، راحت تفكر جديًا في غزو مصر ليتسنى لها الحصول على أكبر قطعة من كعك المستعمرات.

إن الارتباط كان أكيدًا بين المصالح الاقتصادية والتفكير والخطط الإستراتيجية، بل كان ينظر إلى مسألة التجسس على الخصم ليس بمنظور أخلاقي وإنما تمثل سعيًا للمصلحة وإيثارًا لها.

وعلى هذا النحو، لم تكن فرنسا بمنجاة منها، بل إن فرنسا كانت أسبق وأقدم من إنجلترا في هذا المضمار التي كانت أكثر تطلعًا للاستيلاء على مصر منذ الحروب الصليبية وكانت الأسبق في الحصول على الامتيازات الأجنبية من الدولة العثمانية، وفي التاريخ الحديث كان هذا المخطوط من تأليف ليبنيز الذي قدمه إلى لويس الرابع عشر في نهاية التبشير وإرساليات التعليم وعمليات الاستشراق المستمرة.

وعودة إلى مراجع هذه الفترة ترينا أنه في الوقت الذي كان يدور فيه الصراع بين الدول الكبرى على مصر، لم تكن مصر خاملة، أو تفتقر إلى الازدهار التجاري أو –حتى الحضاري– يؤكد هذا عدد كبير من المؤرخين الجدد في فرنسا، وكتب مذكرات الحملة من الضباط والجنود من الفرنسيين، وأيضًا عدد كبير من الرحالة العرب والأجانب إلى غير ذلك مما يستطيع المرء معه أن يرى صورة نابضة بالحياة في مصر قبل أن تأتي الحملة.

بل إن كتابات هؤلاء الرحالة الغربيين منهم والشرقيين ترينا أن مصر كانت مزدهرة، وقد انفردت القرون السابقة – خاصة القرن الثامن عشر – بمرور عدد كبير من الرحالة إلى مصر كان منهم الجواسيس كالبارون دي توت وفولني وأوليفيه والرحالة غير الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر بهدف فهم ما يحدث في العالم القديم في هذه الفترة المزدهرة من التاريخ في هذا العالم.

وقد لاحظت أن عددًا كبيرًا من ردود الأفعال والرسائل التي جاءت كانت تتركز على هؤلاء الرحالة، وخاصة، أولئك الذين كتبوا بشكل محايد تمامًا.

ولأن الكتابات تفرقت بين الرحالة الغربيين والرحالة الشرقيين، فسوف نتوقف عند رسالتين لنرى، إلى أي مدى، كانت مصر مجتمعًا متطورًا قبل مجيء الحملة.

وسوف تتركز الرسالة الأولى عند رحالة غربي والأخرى عند رحالة عربي.

* * *

الرسالة الأولى: كتبها إلينا قارئ عاشق للتاريخ الحديث ودارس له – كما جاء في رسالته– يقول بكر زيدان وهو يحيلنا إلى كارستن نيبور الرحالة الألماني الشهير وهو رحالة يختلف عن الرحالة الجواسيس الذين جاءوا مصر في نفس الفترة أو قبلها، وكان هدفهم الأساسي التجسس وحث بلادهم (فرنسا تحديدًا) على الاستيلاء على مصر للحصول على ثرواتها الاقتصادية في موقعها الجغرافي الهام.

وقبل أن نتوقف عند رحلة نيبور يجب ملاحظة أن اختيار هذا الرحالة الألماني جاء لنزاهته وبعده عن الأغراض الاستعمارية على العكس من الرحالة الفرنسيين، فأكثر من مرجع لدينا يشير إلى أن قادة الحملة الفرنسية ذكروا أنه لولا تأكيد سافاري وجرانجيه وفولني وغيرهم من رحالة الحقبة التي سبقت الحملة الفرنسية لما تمكن من معرفة مصر قبل غزوها. لقد كتب الرحالة الألماني بنزاهة، وهو ما تسجله هذه الرسالة التي أخلى بينها وبين القارئ الكريم الآن، جاء فيها:

"إن هذا الرحال الألماني – نيبور– الذي قدم إلى مصر عام ١٨٦١ أي قبل الحملة الفرنسية بما يزيد على ربع قرن من الزمان لم يجد مجتمعًا نائمًا بل وجد مجتمعًا مفعمًا بالحياة والحيوية.. (و).. فيقول نيبور عن الزراعة في مصر إن الآلات التي تستخدم في ري الأرض بعد انحسار الفيضان هي أجدر الآلات المصرية بالملاحظة والإعجاب وللمصريين وسائل مختلفة لري الأرض، وأن الحدائق المصرية تمتلئ بكثير من القنوات تمكن الزارع من ريها جزءًا بعد جزء، وقد نظمت القنوات بين مزروعات الحدائق تنظيمًا فنيًا جميلاً

بحيث يبدو تخطيط الحديقة على هيئة مسالك متشابكة يتنزه بين جنباتها الناس. كما جاء عن صناعة النوشادر: وربما كان من الممكن صناعة النوشادر في أوروبا بالطريقة الجيدة الرخيصة المعروفة في مصر، ما يبدي نيبور انبهاره بمصالح التفريخ بوصفها اختراعًا مصريًا.

وعن الاستيراد والتصدير جاء أن الجلد الخام يعتبر من أهم البضائع التي تصدرها مصر، وتقدر كمية المصدر منه سنويًا بـ ٧٠ أو ٨٠ ألف قطعة، تصل إلى مرسيليا منها ١٠,٠٠٠ قطعة من جلود الجاموس الجيدة، تستورد إيطاليا كمية أكبر بكثير، أما الزعفران (الذي تقدر قيمته الآن كالذهب تقريبًا) ويتراوح مقدار ما يجنونه عادة من هذه الزهرة (الزعفران) يزن ٥ أو ١٨ ألف قنطار يذهب أغلبه أو أفضله إلى مرسيليا وليفورنيو، وتجارة التيل في مصر إلى بلاد البربر ومرسيليا وليفورنيو وتركيا وسوريا بجدة بل واليمن ومنه أنواع مختلفة ويصدر أكثر القطن الذي لا تستهلكه البلاد إلى مرسيليا وليفورنيو.

وحين يصل إلى تجارة الترانزيت يؤكد أنه تأتي كل عام في شهور أبريل ويونيو عدة قوافل من إفريقيا محملة بثلاثة أنواع من الصمغ وبسن الفيل والتمر هندي والببغاوات وريش النعام وتراب الذهب، وتعود القوافل محملة بالخرز والمرجان والكهرمان والسيوف.

ومختلف الثياب التي يعدها المصريون مناسبة لذوق هؤلاء الأفارقة أما عن ثياب النساء فإنه لا بد للإنسان من أن يعترف بأن ثياب الشرقيات أفخر بكثير من ثياب الأوروبيات، وأن بعض أشكال غطاء الرأس عندهن أجمل مما تلبسه الأوروبيات.

ويظل نيبور في رحلته راصدًا لعديد من المظاهر الاقتصادية والثقافية في مصر في هذه الفترة فينتقل من أعيان القاهرة إلى وسائل الترفية ورقيها بالمقارنة بما كان في الغرب في ذلك الوقت إلى الآلات الموسيقية، والأكثر من هذا كله أن يذكر المسرح في هذا الوقت في القاهرة فيشيد بهذه الفرقة التمثيلية التي كانت تتكون من مسلمين ومسيحيين ويهود، كما لم يفت الرحالة الغربي أن يفيض في الحديث عن الآثار وعن الأهرام".

فإذا استعدنا هذا الانبهار الذي تحدث به الرحالة الغربي عما في مصر قبل ربع قرن من مجيء الحملة الفرنسية، وما كانت تشهده البلاد من تطور حضاري كان قمينا به أن يتطور إلى النضج لو لم يأت الغرب، لتمهلنا عن السؤال الذي يفرض نفسه هنا:

من الذي أثر ومن الذي يتأثر؟

وهو سؤال نرجئ إجابته إلى الرحالة العرب الذين جابوا المنطقة العربية في القرون السابقة لحملة نابليون.

لقد كان عديد من الرحالة الفرنسيين بمثابة موجات تجسس متلاحقة مهدت للحملة، ومن ثم، فإنهم بدلاً من أن يسهبوا في التاريخ الاقتصادي أو التجاري – أو حتى الثقافي المزدهر– (كما رأينا من قبل عند نيللي حنا وعبد الرحيم عبد الرحمن وبيتر جران خاصة مقدمته النظرية.. وغيرهم) يتحدثون كثيرًا عن التخلف والجهل والجمود والاستبداد الشرقي وما إلى ذلك مما نجده في كتب الغرب عن الشرق في هذا الوقت، وهو أمر لم يتوقف منذ الحروب الصليبية على الرحالة فقط، ولكنه تحدد أكثر – في فترات تالية– عند هذا الطراز الذي كان هدفه الرحلة – في الظاهر – التجسس ورصد الواقع العربي في الباطن، وهو ما تقترب معه وجهة الرسالة الأخرى.

إن رسالة أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب القاهرة تبتعد عن العيون الغربية وتقترب – أكثر– من الرحالة العرب.

كتب د. محمد عفيفي رسالة إضافية جاء فيها:

"لقد درجنا من قبل على الركون إلى أقوال الرحالة الغربيين.. فلماذا لا نرى مصر من خلال عيون شرقية أقرب إلينا. ونرى هل استمرت مصر في لعب دورها التاريخي في وسط عالم الناطقين بالعربية حتى في العصر العثماني الذي وصف بالجهل والعزلة والتخلف. إننا في الحقيقة نجد "استمرارية" تاريخية عند الرحالة الشرقيين عن هذا الدور قبل وأثناء العصر العثماني.

يقول ابن بطوطة الرحالة الشهير عن مصر القاهرة: "وصلت إلى مصر. هي أم البلاد وقرارة فرعون ذو الأوتاد.. شبابها يجد على طول العهد. قهرت قاهرتها الأمم. وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد.

وفي القرن السابع عشر – العصر العثماني – يصف الرحالة أبو عبد الله القيسي مصر قائلاً:

"يا لها من قاهرة ما أحسنها وأبدعها، أوفى البلاد طهرة وأزكاها فطرة.. فنسى كل غريب وطنه وود لو أن فيها يقضي عمره وزمنه". وفي القرن الثامن عشر – السابق على الحملة الفرنسية – يصف الرحالة الموريتاني الجزائري مصر قائلاً: "وبالجملة فمصر أم البلاد شرقًا وغربًا، لا تستغرب شيئًا مما يحكى عنها".

تنتهي رسالة أستاذ التاريخ وهو يسأل مستغربًا إذا كانت هذه هي حالة مصر، كما عرفناها من الرحالة العرب: فهل ننسى عدة قرون عاشتها مصر ونحتفل بثلاث سنوات هي عمر "الحملة"؟

سؤال يعيدنا للسؤال السابق:

إذا كان ذلك كذلك، فمن الأجدى أن نقول بنظرة شمولية:

من الذي أثر ومن الذي تأثر؟

وللإجابة عن السؤال لا يجب أن نقرأ التاريخ من الفصل الثاني، فلا يجب أن نرى في (العولمة) علامة اطراد وتقدم دون أن نعرف ما سبقه من المغامرات الأمريكية الشرسة شرقًا وغربًا في العالم كله بالمرحلة الإمبريالية ليصل إلى الرأسمالية ويطورها في اتجاه المصلحة، المصلحة لا الأخلاق.

غير أن الحديث العولمة وعلاقتها بنابليون موضع آخر.

نابليون.. هل كان (أبو) العولمة..؟!

ما يثار الآن كثيرًا حول العولمة يثير سؤالاً هامًا:

هل العولمة ظاهرة تاريخية أم هي معاصرة؟

وبشكل آخر:

هل عُرفت الظاهرة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر أم هي نتاج السنوات الأخيرة من القرن العشرين؟

وتزيد الحيرة هنا أن هذا يحدث في مناسبة مرور (٢٠٠) مائتي عام على غزو الحملة الفرنسية لمصر.. وما يدور حولها من أخذ ورد.

وهو ما يطرح سؤالاً جديدًا:

هل كان نابليون – في عصره (أبو العولمة)؟

أو أنه كان أحد رموز العولمة في مراحلها المتتابعة؟

والإجابة عن كل هذه الأسئلة تهمنا في المقام الأول سواء لتحديد موقف بونابرت كاستعماري – لا كرسول حضارة كما يزعم البعض، وأيضًا، تحديد موقفه في دائرة العولمة (الأمركة) التي نعيش فيها الآن. والواقع أننا لا نستطيع أن نخرج من هذه الحيرة دون أن نشير إلى تطور الظاهرة – تاريخيًا. قبل أن نصل إلى ممارستها (النابليونية) في السنوات التي قضاها القائد الفرنسي في مصر.

* * *

تتعدد الآراء وتتحدد منذ السنوات التي عرفت ببدء الكشوف الجغرافية في الغرب في القرن الخامس عشر هي التي مهدت لهذه الظاهرة.

وإذا أردنا تاريخًا محددًا يهمنا أكثر، لتوقفنا عند القرن الثامن عشر ففي هذا القرن كانت أوروبا قد عرفت تطورات إنسانية كثيرة.

ويتبنى السيد ياسين رأي روبرت بروتسون (في ندوة العرب والعولمة التي عقدت ببيروت) الرأي القائل أن هذه الفترة من منتصف القرن الثامن عشر حتى قرب منتصف القرن التالي كانت هي مرحلة النشوء، فقد حدث تحول حاد في فكر الدولة المتجانسة الموحدة، وأخذت تتبلور المفاهيم الخاصة بالعلاقات الدولية، وبالأفراد باعتبارهم مواطنين لهم أوضاع مقننة في الدولة، ونشأت الاتفاقات المتعلقة الخاصة بتنظيم العلاقات والاتصالات بين الدول.

بدأت مشكلة قبول المجتمعات غير الأوروبية في المجتمع الدولي. بدأ الاهتمام بالموضـــوعات القومية والعالمية.

غير أن مرحلة الانطلاق عرفت في هذه الفترة التي خرج الجيش الفرنسي من بـــلاده ليغزو إنجلترا فلما وجد صعوبات اتجه إلى عدة دول أوروبية مر فيها بإيطاليا قبل أن يـــصل إلى مصر، في هذه الفترة ظهرت مفاهيم كونية ومفاهيم تتعلق بالهويات القومية والفردية، وتم إدماج عدد من المجتمعات غير الأوروبية في المجتمع الدولي وبدأت عملية الصياغة الدوليـــة للأفكار الخاصة بالإنسانية ومحاولة تطبيقها، كما حدث تطور هائل في عدد وسرعة الأشـــكال الكونية للاتصال.

وهذه هي الفترة التي جاء فيها نابليون إلى مصر وهو يحمل فكـــرة تطبيـــق الـــزمن العالمي (وإن احتفظ بتطبيق تقويم للجمهورية الفرنسية) وبعض الأفكار العنصرية، كما تبنـــى عدة أفكار كانت نتاج التطور العالمي ممثلاً في بيانات الثورة الفرنسية سواء ما جاء إبان قيام الثورة في فرنسا أو عبر بيانات الثورة/ الحملة في مصر فيما بعد.

وقبل الاستطراد حول تبني نابليون للنزعة الإنسانية لا بد من تحديد نستطيع في ضوئه رؤية موقع الحملة الفرنسية من التطور الزمني الذي انتهى بالعولمة في نهاية القرن العشرين.

* * *

يجب أن نسارع بالقول هنا: إن نابليون وإن تبنى مقولات وأفكاراً تنتمي في بعـــضها إلى العولمة كما هي معروفة الآن، وأن ما جاء بها إنما كان مرحلة من مراحل تطـــور هـــذا المفهوم. ففي هذه الفترة المبكرة من تاريخ العالم، لم يكن من الممكن أن نصف زمن بونابرت بأنه زمن العولمة وإنما نستطيع أن نطلق عليه مرحلة من هذه المراحل، ونستطيع بـــشكل أدق أن نسمي هذه المرحلة مرحلة العالمية، والعالمية مفهوم يغاير تمامًا مفهوم العولمة.

ومراجعة أكثر من معجم يتضح لنا هذا المفهوم، فبالعودة إلـــى معجـــم دويـــسترازوا كامبردج (١٩٩٦) سنجد أنفسنا أمام معنى مغاير لما في ذهننا عن العولمة منذ فتـــرة مبكـــرة فالعولمة Sibalization في هذين المعجمـــين تـــشير إلـــى معـــان تقتـــرب مـــن العالميـــة Universalisation، وفي حين نعرف فيما بعد أن العولمة تهدف إلى استخدام العنف الثقافي في إقصاء الخصم وقمعه والإحلال بدلاً منه، فإن العالمية تظل هي طموح الارتفاع إلى كل ما هو إنساني واستخدامه لما هو خاص، وإن ظل مصطلح العالمية هنا تابعًا – في تفسيره– إلى العولمة وبينما تطرح العالمية أفكارًا إنسانية قد تقبل بالتبادل بين الثقافات حين يحـــدث تـــدخل أو امتزاج) فإن العولمة تسعى إلى سلب الخصم لفرض إرادته وهويته، وبالتالي نفيه من العالم

وفي حين سعى نابليون للهيمنة على الخصم لفرض إرادته بـالمفهوم الإنـسان، فـإن بـوش (وكلينتون فيما بعد) سعى إلى أكثر من ذلك عبر (الرأسمالية الوحشية) كان مـن الممكـن أن نلحظ في القرن الثاني عشر تطور المركزية الأوروبية ممثلة فـي صـراعات دول أوروبـا نفسها، وهو ما تطور أكثر في تبني فكرة (الاستعمار) الذي تبلور باسم آخر هو (الحـضارة) ثم في مرحلة تالية إلى (العولمة).

وإذا كان الفرنسيون في عصر المركزية الأوروبية اعتبروا أن من واجـبهم تعمـيم أفكار الثورة الفرنسية – وإن لم يكتفوا صادقين في حالة تطبيقها على الشعوب، كما رأينا فـي الكتابات السابقة – فإنهم لم يكتفوا بالحديث عن دور فرنسا الحضاري فيما بعد وفـي جميـع الحالات مثل نابليون في عالميته مرحلة من مراحل (العولمة) وتمهيدًا لها كـان يـسعى إلـى السيطرة على العالم في صراعه مع إنجلترا، وتكوين الإمبراطورية (العالمية)، وهو ما كـان يظهر – منذ فترة مبكرة– أفكاره إبان الحملة وبياناته وصحفه، وأحاديث الكثير مـن مثقفـي الحملة الفرنسية في مصر وذكريات جنوده فيما بعد، بل وفي ذكرياته هو نفسه – بعد نفيـه– وهو ما يقترب بنا من وعي نابليون لهذه المفاهيم.

* * *

إن هذا الوعي البونابرتي لمعنى السيطرة والهيمنة الكاملتين نجده في حياته الطويلـة، وسوف نكتفي بعدة أمثلة هنا تغني عن مئات الأمثلة والمواقف الأخرى. وسوف تحـدد هـذه الأمثلة حول الربط بين الإمبراطورية الفرنسية – كما كان يراها – والإمبراطورية الرومانيـة (العالمية) في أوج توسعها وسيطرتها على العالم.

إن نابليون – كما لاحظنا مرارًا– لم يكن ليكف عن الحديث في فتوحاته إلـى المـدن الإيطالية (الرومانية)، وتلاحظ د. ليلى عنان في دراستها الأخيرة حول الحملة إن الحرب التي بدأت بالفعل كعودة إلى سياسة فرنسا الأزلية، تحولت سريعًا إلى الرغبة في التوسع، وأصبحت تلك الرغبة هي الهدف الحقيقي لهذه الحروب. وتكرر الإشارات الكثيرة إلى جنـون العظمـة الذي انتاب خلفاء روما، كما رسمه لهم الفنان دافيد صاحب اللوحات الكلاسيكية الشهيرة عـن تاريخ روما! وكانت هذه الرغبة في التوسع أحد مظاهر هذا الجنون وهذا التقمص للشخـصية الرومانية الفذة.

وعلى هذا، لم تكتف الثورة الفرنسية عن محاولة الوصول إلى حدود الإمبراطوريـة الرومانية في أوج توسعها، وإنما تلمست أيضًا القانون الروماني كرغبة دفينـة فـي التوسـع العالمي والهيمنة بحيث تصبح الثورة وحكومة الإدارة – بالتبعية عالمية النزعة. ولم يكن هذا

النزوع إلى العالمية لدى المثقفين الفرنسيين فقط، وإنما كان يمكن رصده لدى السياسيين قبل خروج الحملة من فرنسا أو بعد وصولها إلى مصر. وعلى سبيل المثال، عندما تقدم الوزير (تاليران) مثلاً بمشروع غزو مصر لحكومة "الإدارة" قال عبارة لا تخلو من معنى:

"كانت مصر مقاطعة في الجمهورية الرومانية، فيجب أن تصبح للجمهورية الفرنسية"

وعلى هذا يمكن تفسير كيف اختار نابليون (لقب القنصل الأول) لقبًا يحكم به فرنسا التي أصبحت الآن تستحوذ على بلاد كثيرة، فحينما تخلصت من ملوكها الطغاة وتحولت إلى الجمهورية المثالية التي حكمت العالم بقوانينها العادلة ورجالاتها النزهاء الوطنيين. أصبحت كلمة قنصل – كما تلاحظ د. عنان أيضًا – لقبًا للحاكمين اللذين يتقاسمان السلطة العليا فيها. وبما أن الثورة وصلت – كما توهم مشرعوها– إلى ذروة المجد والفضيلة، وحلت محل روما وتقمصت دورها، فقد أنشئت حكومة جديدة بعد الانقلاب بها ثلاثة قناصل، وكان بونابرت القنصل الأول فيها، فهو التجسيد الحديث للقائد الروماني المنتصر بزيه الوطني الفاضل. كان يلقب بالجنرال الجمهوري بالمعنى الروماني للكلمة، وبكل ما توحي به الكلمة من فضائل، تستمد رموزها من نزاهة وتمجيد القانون الروماني، وهو المعنى الذي نفهمه من أحد ضباط بونابرت في مصر (جوزيف ماري)، فهو ينقل لنا كثيرًا من بيانات نابليون ومواقفه من مصر ليؤكد هذا المعنى، ففي ١٠ مايو ١٧٩٨ يقول بونابرت في بيانه إلى الجنود:

"لقد كانت فيالق الرومان التي اتخذتم منها أحيانًا مثلاً تحتذونه، وإن لم تبلغوها شأوها، تقود المعركة تلو الأخرى في "زاما" وكان النصر دومًا حليفهم، لتحليلهم بالشجاعة والصبر على الشدائد، والتزامهم النظام والتوحيد".

وعلى هذا النحو، مثل نابليون مرحلة متقدمة من مراحل (العولمة) في تطورها إبان "مرحة الانطلاق" –وهو تعبير روبرتسون– نحو تطور العولمة إلى الصراع من أجل الهيمنة التي استمرت إلى منتصف الستينيات من هذا القرن على وجه التقريب وإلى أن أصبحت العولمة في التسعينيات واقعًا يعود بمرجعيته الأمريكية إلى الأمريكيين وعاد بمرجعيته الأوروبية – بالتطور التاريخي – إلى السيطرة الأوروبية.. إنها (العولمة) الغربية بشكل ما.

وقد لا يخلو من مغزى أن الفرنسيين الآن – كجزء من (المركزية الأوروبية) – يرفضون هذه العولمة الأمريكية في (الجات) [*] فراحوا ينتزعون مصطلح (الاستثناء الفرنسي)، وحاولوا أن يحافظوا على هويتهم من هذه الرأسمالية المتوحشة. في هذا السياق. إن

---

[*] انظر كتابنا (الجات والتبعية الثقافية)، مركز الحضارة العربية، القاهرة ١٩٩٧، أيضًا ط ٢ مكتبة الأسرة، هيئة الكتاب ١٩٩٩.

استخدام الفرنسيين للألفاظ يحمل هذا المعنى، ففي الصحف الفرنسية لا نقرأ مصطلح العولمــة بالمفهوم الشائع Globalization وإنما يــستخدم بــدلاً منــه المفهــوم الفرنــسي الخــالص Mondialisation فهم يرونها أوروبية وليست أمريكية، لأنهم يرفضون أن يروها كذلك وهو يحمل معنى استعماريًا مضمرًا.

بقى أن نقول إننا الآن – في نهاية القرن العشرين – أقل مقاومة وأقل تماسكًا مما كنا عليه في نهاية القرن الثامن عشر.

لقد استطاع أجدادنا المقاومة بإرادتهم التي افتقدت السلاح النــاري والمدفعيــة وآلات الحرب التي كان الغرب قد عرفها، أما الآن، فإننا نفقد الكثير، مما يخفيه الغرب عنا، ويحاول (العولمة) بمعناها الأمريكي الصرف.

ترى متى نعي جيدًا مخاطر (العنف الثقافي) الجديد ونحاول مقاومته بالإرادة والفعــل في آن واحد؟

المثقف.. والمسيخ الدجال!

لا أعرف لماذا تذكرت هذا الخبر وأنا أقرأ ما يكتبه عدد كبير من الكاتبين عن الحملة الفرنسية ونابليون وشاتوبريان وغيرهم.. الآن؟

والخبر يقول أن: "خطيبًا بالعاصمة وقف فوق المنبر وبلهجة واثقة راح يؤكد أن سياسية إسرائيل وأمريكا تطابق تمامًا سياسة المسيخ الدجال، وهو ما يوحي باقتراب الساعة ووسط صيحات المصلين استطرد قائلاً: إن المسيخ الدجال سوف يخرج من مثلث برموده، وهو الشيء المشار إليه في الرسومات إذا تم طرحهما يمكن معرفة عدد السنوات المتبقية بالضبط على ظهور هذا المسيخ وبالتالي يمكن معرفة قيام الساعة".

ينتهي الخبر وتبدأ التساؤلات.

ولعل القارئ الكريم يسأل معي – ويعجب – لماذا تذكرت صورة هذا الخطيب وأنا أقرأ لهذا الكاتب الكبير أو ذاك فلا أعرف منه أنه قرأ المصادر الأساسية عن الحملة، أو عرف التقارير والرسائل والدراسات وما أكثرها التي كتبت عن مصر في فترة مجيء الحملة – فضلاً عن كتابات مدرسة التاريخ الحديث في فرنسا– ليصل هذا كله إلى يقين أو شبه يقين يدفع به ليكتب عن الحملة.

قد نجد إجابة لهذه الأسئلة.

* * *

ربما هذا جزء من الإجابة، لأن كتابنا في قضية الحملة الفرنسية (وقضايا كثيرة أخرى معاصرة كقضية العولمة أو قضية الصراع العربي الإسرائيلي منذ نصف قرن.. إلخ) لا يشغلون أنفسهم بالكتابات والوثائق الكثيرة التي كتبت عن الحملة منذ غادر نابليون مدينة "تولون" في أسطول ضخم ليهبط بالإسكندرية في أول يوليو منذ مائتي عام.. ولماذا يجهدون أنفسهم و (المرجعية) التاريخية لعلاقتنا بفرنسا لا تحتاج كل هذا الجهد؟

ولماذا يهتمون والعلاقات المصرية الفرنسية هذه الفترة تأخذ شكل (الاحتفالية) التي تحدد المواقف عليها دون تفاصيل كثيرة؟

ولماذا يرجعون إلى المكتبة الأهلية بباريس (حيث وثقت وثائق الحملة أوراقها في أجهزة معلوماتية حديثة) أو مكتبة القاهرة (حيث جاء المثقف كامل زهيري بآلاف الوثائق عن الحملة وما بعدها..)

ولماذا يهتم هذا المثقف أو ذاك وهو يسمع (تحيا ثقافة السماع) أن نابليون استطاع أن يحضر إلى البلاد بمكتبته ومطبعته، وأن علماء الحملة قاموا بالبحث والتنقيب وعمل المقاييس ورسم الرسومات ومسح المناطق في كل البلاد ونقل أمهات الكتب التراثية وعديد من قطع الآثار المصرية مع رجال الحملة حين ذهبوا من مصر؟

لماذا يرهق المثقف نفسه، وهو في إمكانه – على طريقة الخطيب – أن يتحدث إما عن الدور الحضاري الكبير الذي لعبته فرنسا في تحضير مصر وإخراجها من العصور الوسطى، أو – على الجانب الآخر – إذا لم يصدقه أحد راح يتحدث عن فترات من التاريخ استطاع آخرون أن يلعبوا هذا الدور لتحضير مصر (المحروسة) خائضًا في سيرة الإسكندر وخلفائه أو المعز الفاطمي وفتوحاته أو.. حتى جاء نابليون ليتفوق على قمبيز ويقلد الإسكندر ويتحضر أكثر عن جنكيز خان أو هولاكو.. لاعنًا هؤلاء الأصوليين الذين يغضبون من الغازي (بونابرته) الذي أضاع البلاد وأهلك العباد.. إلخ.

أو يلجأ – متعمدًا– ليجامل فيتجاهل العلم إلى المصلحة الخالصة!؟

وما يقال عن الحملة يقال عن قضايا أخرى معاصرة كثيرة.

* * *

بيد أننا سنرجئ هذه القضايا الكثيرة التي يخوض الغالبية عندنا فيها – بغير علم – ونتمهل عند هذه الحملة الحضارية التي "كانت لها جوانبها الثقافية والحضارية التي بدأت منها نهضتها الحديثة في أوائل القرن الماضي" – على حد تعبير أحد كتابنا الكبار– فالغريب في الأمر أن لدينا من يعتقد بتأثير الحملة الحضاري بشكل يفوق هذا التأثير– إذا كان ثمة تأثير.

وقد كان أكثر ما ألمني هذه الرسالة التي جاءت من أستاذ مساعد بالقسم الفرنسي بآداب الإسكندرية – د. دينا جمال الدين أمين– وتتحدث فيها عن ضرورة أن نجاوز مرحلة الجمود الفكري إلى ضرورة التفاعل مع التاريخ من منطلق واقعنا، فقراء التاريخ من موقع الحاضر هي الوسيلة الحقيقية والفعالة للتعبير عن الذات. والقدرة على فرض وجهة نظر أو رؤية للتاريخ.

حسن فلنقل أهم ما جاء في رسالة د. دينا، تقول بالحرف الواحد:

لقد استفاد أعضاء الحملة الفرنسية من ذلك الدرس الذي برهنت عليه الحملة الفرنسية ذاتها التي سرعان ما أصبحت أم الثورات في أوروبا والعالم الجديد، لقد جاء أبناء الثورة الفرنسية البكر لمصر بروح متفتحة لينهلوا من منبع الحضارة الإنسانية بكامل عدتهم دون إغفال أي جانب من الجوانب البحثية. جاءوا لمصر راغبين في التقدم في العلم والمعرفة

والحياة كذلك استفاد أجدادنا من درس الحملة الفرنسية التعبوي والعلمي، يطوروا أنفسهم ويؤصلوا هويتهم ويدركوا أهدافهم.

ومن الصواب اليوم أن تبدو لنا الحملة الفرنسية بوجهها الحضاري (لا الاستعماري) وفي سياق علاقات دولية قديمة، ومفاهيم حضارية متبادلة مع احترام للاختلاف بالإضافة إلى قيم اقتصادية حديثة لها أسلحتها الفكرية والتكنولوجية التي تحكم بالتخلف على ما دون مستواها. لذلك فإن الخلاف حول الاحتفال بقدوم الحملة الفرنسية ولكن لكونها رمزًا لتميز علاقتنا بفرنسا منذ ذلك الوقت، وللتبادل والإثراء المشترك على مر السنوات الطويلة. هناك قصة بين البلدين صنعها التاريخ ليفيد كل منهما الآخر.. إلخ.

وهنا تتداعى تساؤلات كثيرة:

وهل برهنت الثورة الفرنسية –حقًا – أنها أم الثورات بعد أن اختفت القيم الأولى التي ارتفعت مع خروج الجيش الفرنسي إلى دول أوروبا لتحولها إلى دول تابعة للإمبراطورية الفرنسية (=الرومانية)، ثم بعد أن جاء الجيش الفرنسي إلى مصر.

(نكرر المثل الذي سبق وأن ذكرناه فلم يمض قليل على قيام الثورة الفرنسية حتى اختفى المفهوم الثالث من شعار الثورة "الحرية والمساواة والإخاء"، فأصبح مفهوم الحرية والمساواة أما الإخاء فلا..) وهو المفهوم الذي أعقبه إجراءات ضد المستعمرات الجديدة بما فيها إبادة الآلاف حتى ولو كانوا من المواطنين الفرنسيين أنفسهم كما حدث في مقاطعة "فاندية").

وهل حقًا استفاد أجدادنا من درس الحملة التعبوي والعلمي (نشكك كثيرًا في هذه الاستفادة، حتى ولو كانت – كما يقال– كرد فعل لهذه الحملة الاستعمارية (لقد عاشت مصر منذ خروج الفرنسيين سنوات فوضى كاملة اختفى فيها أي أثر للحملة بين ١٨٠١ – ١٨٠٥، فضلاً عن أن الوعي بالهوية، وقد كان فائقًا، وفي شتى الميادين. كما بينا من قبل – كان ظاهرًا منذ نهاية القرن الثامن عشر.. إلخ).

ثم وهل يمكن القول أن رحلة شاتوبريان (الرحلة من باريس إلى القدس) لمصر – كما أرفقت الباحثة فصلاً عنه– تتعرض للمعنى الحضاري الذي تمثله مصر وفتح باب زيارة مصر في الأدب الغربي.. إلخ، في حين أن شاتوبريان حاول أن يحول الحملة وقائدها إلى أسطورة ويرى أن الإسلام يعادي الحضارة ولا يرى أثناء زيارته إلى مصر بعد ذلك غير أن مصر بها صروح الحضارة التي جلبتها الحملة الفرنسية.. إلخ.

وقد أسهمت فيه د. ليلى عنان في كتابها الأخير حول الحملة، وشاتوبريان في هذا السياق وأشار إلى مثل ذلك أيضًا إدوارد سعيد في كتابه عن الثقافة والإمبريالية.

ثم ما معنى الاحتفال بالحملة لكونها رمزًا لتميز علاقتنا بفرنسا، وهو ما يشير إلى الإصرار على الأثر الحضاري الذي تركته الحملة.

إننا كما يجب أن نحتفل بهذا الرمز يعني أننا يجب أن نحتفل بالإنجليز الذين أنشأوا السكك الحديدية في مصر، وقبلهم بكثير يمكن "الاحتفاء" ثم "الاحتفال" بالهكسوس قبلهم الذين أدخلوا العربة الحربية إلى مصر (كما تذهب بعض الروايات).. وهكذا دواليك ثم وهل عاد أستاذ الجامعة حقًا لكل ما كتب أو أهم ما كتبه في موضوع الحملة ومؤثراتها قبل أن يكتب وهو ما يعود بنا إلى القضية الأساسية.

* * *

وهو ما يعود بنا إلى هذه القضية التي تدهش من كم الكتابات عن –وحول– الحملة وتأثيراتها الحضارية في حين لم يعرف كاتبونا (أو لنقل أغلبهم) المصادر الأساسية لما يكتبون في بساطة وإسهاب في عصر المعلوماتية.

وهي ظاهرة نتعرف عليها في هذا الكم أو (الكوم) الضخم في الصحف والدوريات الأجنبية المصرية الآن.

لم يعد دور المثقف اجترار ما يعرف، وإنما تغير الواقع إلى وعي كوني في عالم يرتبط جوانبه بشبكة معلومات واتصالات لا تتوقف ثانية واحدة عن بث المعلومات لأية قضية في نصوص وصور ثابتة، وأصبح الانتباه واجبًا في عصر الاختراق الثقافي الغربي لهويتنا وكياننا كله.

وحين نخرج من مجال المعلوماتية المتقدمة نصطدم بوعي المثقفين عندنا في قضية كالحملة الفرنسية وعبر أسئلة كثيرة منها:

من قرأ أرشيفات وزارة البحرية الفرنسية؟

ومن عاد إلى الوثائق والمراسلات – وهي كثيرة جدًا وتتصل بعمليات جيش الشرق إلى مصر تحت عنوان (بيانات الجنرال نابليون) ونظن أن هناك نسخة كاملة منها في الجمعية التاريخية؟

ومن قرأ التاريخ العلمي والعسكري للحملة في مصر قراءة علمية متأنية؟

ومن قرأ الكتاب المهم (حملة مصر) للأجونكيير وأعمال آندريه ريمون الذي يزور مصر الآن؟

ومن عرف وثائق نابليون المنشورة في عهد الإمبراطورية الثانية؟

ثم من قرأ (أوراق كليبر) التي نشرها المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة؟

ثم عاد إلى المصادر الأساسية في العربية فقرأ (عجائب...) الجبرتي (وقد صدر لهـا أخيرًا طبعة كاملة تحتوي على وثائق وتحقيقات وتدقيقات هامة للزميل عبد العزيز جمال الدين عن مكتبة مدبولي) أيضًا من عرف مخطوطات كثيرة معاصرة للحملة أو لاحقة لهـا بقليـل كمخطوطة أحمد باشا الجزار.. وصحف بونابرت في مصر.. وكتاب مثل (دور نحو العين..) للطف الله بن أحمد.. وكتاب نيقولا ترك (أخبار الفرنساوية..) فضلاً عن كشاف بعديـد مـن الوثائق الفرنسية في مكتبة جامعة القاهرة والجمعية التاريخية فضلاً عن المجلـدات الـضخمة التي تحتاج إلى إعادة نظر بالفرنسية والعربية (نوقشت أخيرًا رسالة دكتـوراه عـن الجـزء الخاص بالدولة الحديثة في كتاب وصف مصر..) بينما هناك كنوز لم تفض بعد في كل مـن المكتبة الأهلية بباريس ودار الكتب المصرية وأيضًا بمكتبة القاهرة والجهد الذي يبـذل فـي صمت بجامعة عين شمس تحت عناية د. عبد العزيز نوار في هذا الصدد بينما ظلـت بقيـة المجلدات غامضة بعيدة عن التحقيق الدقيق (يمكن أن تستثنى في هذا جهد د. أيمن فؤاد فـي كتابه المترجم: وصف مدينة القاهرة..) غير أن طائرًا واحدًا لا يغـرد وحـده. أو أن مثقفًـا واحدًا، لا يستطيع أن يغرد وحده في وجود عشرات من أمثال المسيخ الدجال.

جومار.. هل تعرف جومار؟!

يظن – وبعض الظن إثم – إن كتاب (وصف مصر)، وجومار أحد علماءه، كان أحد الآثار الإيجابية التي تركتها الحملة الفرنسية في مصر، أو لمصر.

ولأن بعض الظن غير إثم، فقد لاحظنا – وهو قول قد يفاجئ المتحمسين "لوصف مصر" – أن هذا الكتاب لم يكن ليوضع، لو لم يكن وراء ذلك نفع خاص للحملة الاستعمارية، وتحقيق أهداف فرنسا قبل أن يعود هذا أو لا يعود بالنفع على مصر (بغض النظر عن حكاية دهاء التاريخ) وأبرز دليل على هذا أن جزء الدولة الحديثة في هذا الكتاب بدأ فيه مؤلفه جومار بالسطور التالية: "إن المعلومات التي سنطالعها فيما يلي هي في الخريطة المساحية للقاهرة ولزيادة نفعها".

ونلاحظ هنا كلمات دالة شديدة الدلالة مثل "المعلومات" و "كلفني به" و "استكمال الخريطة المساحية للقاهرة "لزيادة نفعها". بلغة أدق، فإن ما قام به جومار – وهو ما تؤكده كل مصادر هذه الفترة – كان لتأكيد الحماية للفرنسيين وهو ما سنسهب فيه أكثر وقبل أن نستطرد أكثر حول هذا لا بد من الإشارة إلى العالم جومار.

... هل تعرف العالم جومار؟

هذا جزء من الإجابة عن السؤال حول جومار وجزء من الدولة الحديثة الذي كتبه من "وصف مصر"..

* * *

إن جومار – لمن لا يعرفه – هو مهندس وجغرافي وأثري فرنسي، وهو أحد أعضاء البعثة العلمية التي صاحبت الحملة الفرنسية على مصر وعضو في المعهد العلمي المصري بين عامي ١٧٩٩ و ١٨٠١ وقد شارك مع آخرين في تأسيس الجمعية الجغرافية في باريس في بداية العشرينيات من القرن الماضي غير أن أهم ما كتبه كان كتابه (وصفه للقاهرة وقلعة الجبل) الذي نقله عن الفرنسية د. أيمن فؤاد[*] وبذل فيه جهدًا كبيرًا مما حفزنا إلى التنبيه إلى دوره أكثر.

ومراجعة كتاب (وصف مصر) يرينا أنه كان في الأصل دراسات وتقارير ومذكرات وأوراق كان الهدف من كتابتها أول مرة الإفادة من المعلومات التي تقدم من أجل استقرار الفرنسيين في مصر، ويمكن تحديد الفترة التي تم فيها رصد هذه الأحداث وحتى عودة الحملة إلى فرنسا والانتهاء من الكتاب بمجلداته كلها بالفترة التي تقع بين عامي ١٧٩٨ – ١٨٢٢ في

---

[*] مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٨.

فرنسا والكتاب نفسه يصف القاهرة في السنوات الثلاثة التي قضتها الحملة في مصر (وتحديدًا بين ١٠ ديسمبر ١٧٩٩ وأواسط فبراير ١٨٠٠) وهي الفترة التي قام بها جومار بجولته في القاهرة لتسجيل معالم المدينة ورصد المعلومات الهامة عنها في كل الميادين.

ومهما يكن من الجهد الذي قام به جومار من وصف طبوغرافي وخريطة تفصيلية.. وما إلى ذلك، فإن الهدف الرئيسي يظل التعرف – أكثر – على القاهرة ليستطيع الفرنسيين السيطرة عليها. وهو ما نقترب منه أكثر في ضوء مصادر هذه الفترة لعل من أهمها يظل كتاب جومار – الذي نقله بدقة وعلق عليه أيمن فؤاد – في المقدمة وهو ما يتأكد في ضوء كتابات أخرى من بينها "عجائب" الجبرتي وأطروحة د. عبد الله عزباوي وبعض المصادر الأخرى..

* * *

ومن ذلك ما يطرح نفسه علينا أثناء قراءة جومار هذا الوجه الحضاري الذي كانت عليه القاهرة رغم كل ما يقال عن تخلفنا وجمودنا، وهو امتداد للربع الأخير من القرن الثامن عشر، وباعتراف جومار الآن في كتاب اجتهد فيه صاحبه، أنه عاد إلى بعض العلماء والمستشرقين الغربيين من أمثال فونتير ومارسيل وسلفستر دي ساسي نجده يعترف أيضًا أنه ما كتب إلا باستفادته بنصوص كثيرة أوردها المؤرخون والكتاب العرب الذي عاد إليهم من أمثال المسعودي والإدريسي وأبي الفدا وعبد اللطيف البغدادي وعبد الرشيد البكوي وابن العميد والذهبي والمقريزي وابن إياس والسيوطي وحاجي خليفة.. إلخ خاصة حين يتعلق الأمر بطبوغرافية القاهرة وظواهرها.

بل إنه استفاد بكتابات عديد من الكتاب العرب أكثر من الغربيين، وهو قائم فيما كتبه وهو ما يظهر في الحديث عن المعالم والسكان والصناعة والتجارة والثقافة الدينية منها والعملية في مدينة القاهرة. وهو ما يؤكده لنا مراجعة ما كتبه جومار. وسوف نختار من هذا عدة ظواهر أخرى دالة على ما كانت عليه مصر في ذلك الوقت.

* * *

تتمثل إحدى هذه الظواهر في الجامع الأزهر لما لعبه من دور إيجابي ليس في العلوم الدينية فقط، وإنما في غير ذلك من العلوم العصرية.

ففي حين يشير الباحث العربي – عبد الله عزباوي في أطروحته عن الأزهر وعلماء الدين.. من أن العلوم العقلية كالرياضيات والفلك والطب لم تكن لتدرس في الأزهر وغيره من

المدارس الدينية في مصر في القرن الثامن عشر، فإن الباحث الفرنسي – جومار – في بابه عن المساجد يذكر العكس.

إن جومار الذي لم يكن ليحمل ودًا طيبًا للمصريين، بل تعصبًا ظهر فيما بعد؛ ومع هذا يذكر أن الجامع الأزهر "من أقدم الجوامع وموارده ضخمة جدًا بصرف القسم الأول منها على تزويد مكتبة وتمويل مؤسسة أشبه بالجامعة كان يدرس بها فيما سلف الطب وعلم الكلام والشرائع والرياضيات والفلك والتاريخ.." فضلاً عما كان يعلم به المعارف/ العامة والعربية الفصحى بعناية فائقة ويسهب جومار في الأعداد الهائلة التي كانت تتعلم بالأزهر حتى تصل إلى اثنى عشر ألفًا – كما يشير – يطعمون أكثرهم فيه ويوفر لهم المسكن وما إلى ذلك.

فالأزهر إذن:

– لم يقتصر العلم فيه على العلوم الشرعية كما هو شائع، وإنما العلوم الطبيعية والرياضية أيضًا.

– والأزهر لم يقتصر التعليم فيه على عدد قليل من مصر، وإنما جاوز مصر، إلى شتى أنحاء العالم المعروف، فأصبح أقرب إلى (جامعة ضخمة) وليس دارًا للعلم أو (كتابًا) كبيرًا، ويؤمه عدد لا يحصى – كما يقول في موضع آخر – من الجنسيات المختلفة، والذين يأتون لتلقي العلم في القاهرة وعلى الأخص – ولاحظ تعدد الأجناس وتباينها– الفرس والشوام والأكراد وعرب الحجاز واليمنيون والهنود وأفارقة من غرب إفريقيا.. إلخ وذلك دون الحديث عن السكان المنتمين إلى أقاليم مصر العليا والسفلى، كما يشغل الجامع في هذه الفترة رواقًا مستقلاً للعميان.

وحين يجيء دور (الكتاتيب) فإنه كان لا يملك غير الثناء على هذه، الدور التي تُمنح الأموال من (الأوقاف)، والمفاهيم التي كانت تلقن في هذه الكتاتيب "رغم بساطتها" في تعبيره فإنها لم تكن تكتفي بالقراءة والكتابة والحساب، وإنما كانت – في تقديره – لم تكن غير "مدخل إلى التعليم الجامعي؛ أي الذي يُعطى في الجامع الأزهر ومدارس أخرى.. و.. ومن ناحية أخرى فإنه لشيء حسن أن يجد الناس عددًا من الدور المفتوحة التي يستطيعون أن يحصلوا فيه معارفهم الأولى الضرورية في حين يلقنها في أوروبا ربع أو خمس الآباء لأبنائهم".

وهو ما يشير إلى أن العلم كان متقدمًا في الأزهر، وكان يدرس داخل الأزهر وخارجه العلوم الدينية والعلمية الأخرى.

فهل ما زلنا نتحدث عن القيم العلمية التي أكسبها الفرنسيون للمصريين في ذلك الوقت؟

لنتمهل عند ظاهرة أخرى.

فبدلاً أن نتحدث عن الدور الإيجابي التي تركته الحملة في مصر في ذلك الوقت، نجدنا نتحدث عن الخراب الذي خلفته في عديد من المناطق بحكم تأكيد الوجود والبحث عن الأمان وتحصين قواتهم.

وما يعترف به جومار هنا يقول به العديد من المصادر الأخرى وفي مقدمتها مؤرخ معتدل مثل الجبرتي.

إذن قارئ الجبرتي – على سبيل المثال – يلاحظ أن الفرنسيين خاصة في الفترة الأولى من وجودهم في مصر، وخاصة إبان ثورات المصريين عليهم أو القلاقل التي كانوا يستشعرون بها– كانوا لا يترددون في تدمير كل ما يواجههم، وإبادة كل ما يقف في وجه استقرارهم في مصر بغير تردد (وهو ما فعلوه في فرنسا نفسها عقب الثورة الفرنسية ثم في الأقاليم التي كانت تحيط بفرنسا كإيطاليا..).

إن (عجائب الجبرتي..) تمتلئ بكثير من هذه العبارات وهو يشير إلى العسكر الفرنسيين:

– إنهم كانوا "يخلعون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات..".

– إنهم "شرعوا في خلع البوابات والدروب الغير نافذة أيضًا..".

– إنهم "هدموا الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والتكايا.." ويمتد الخراب إلى مناطق عديدة يذكرها الجبرتي بالاسم مرورًا بالرميلة وصولاً إلى دار الأزبكية وصولاً إلى عديد من المناطق والقرى الكاملة في الصعيد التي تحرق بسكانها إذا أحس الغزاة منها المقاومة.

إن مراجعة جومار ترينا أنه يعترف أنه باستيلاء الفرنسيين على مصر فقدت عددًا كبيرًا من المنازل التي كانت تعيق اتصال مركز القيادة ومراكز الفرنسيين الأخرى بالقلعة، ويعترف بوضوح شديد أن الفرنسيين – وهو يتحدث بضمير المتكلم –: "لم نجد، في هذه الفترة، الوقت الكافي لتشييد شيء هام.. إلخ".

وحين يشير أن الفرنسيين لم يستطيعوا تنفيذ بعض ما أرادوه من إصلاح، فإن ما حاولوه في هذا السبيل يتحدد في عدة أشياء كانت تخدم رجال الحملة أكثر من أهل البلاد، فحين يذكر أنه إبان تسجيل كل الوفيات بدقة مع تمييز نوع الجنس "حتى نتعرف على عدد الوفيات" يسمى ذلك إصلاحًا.

ومن ثم، يضيف "وقد ذهبت كل هذه الإصلاحات بذهاب الإدارة الفرنسية" وكانت الإدارة الفرنسية جادة فعلاً فيما فعلته أو فيما قدرت –على الورق– أن تفعله لصالح البلاد،

ومراجعة مذكرات نابليون بعد أن عاد إلى سانت هيلانه، يرينا أنه كان كثير الأحلام كلما جاء ذكر مصر، فهو يتحدث عن المدينة التي كان يزمع الحكم فيها (ليستطيع أن يحكم العالم) وأنه لولا غزو مصر لما استطاع أن يصبح حاكمًا لفرنسا، وفي هذا السياق كلام كثير عـــن هـــذه الأحلام التي كان يمكن أن تحيط العاصمة بأسوار من الأشجار، وتحول جبل (المقطـــم) إلـــى مساقط للمياه.. إلى غير ذلك مما كان يصب في (أسطورة) حاكم الغرب.

* * *

بيد أنه يجب أن ننهي هذه السطور دون أن نشير إلى عدة ملاحظات، منها:

إننا في حاجة إلى إعادة الطرح الذي سبق وأن أشرنا إليه هنا، وقد طرح بإصرار لدى عدد من الكتاب لعل من بينهم الأمريكي بيتر جران من أن الحملة عملت على إجهاض التطور الطبيعي الذي كانت تمر به البلاد، كما أن روح المقاومة لم تتوقف قط طيلة وجود الحملة في مصر وإبان العمل على السيطرة بشتى الوسائل التي وصلت إلى حد التدمير الشامل.

ثم – وهو ما يجب إعادة النظر إليه مرة ومرة – إن "وصف مصر" لم يكن أحد الآثار الإيجابية التي تركتها الحملة في مصر كما يردد البعض حتى يتحدثون عـــن مـــآثر الحملـــة الفرنسية فيضيفون إليه شامبليون وبعثات محمد علي والسان سيمونيين.. إلخ وهو ما يقول به كثيرون ومنهم جومار نفسه حين يتحدث عن "وصف مصر".

وهو ما يدفعنا إلى إعادة طرح سؤال جديد هو:

"وصف مصر" أم "وصف فرنسا"؟

هذا هو السؤال..

(وصف مصر).. أم (وصف فرنسا)؟!

أشرنا من قبل إلى كتاب الحملة (وصف مصر).

وأشرنا إلى المغالاة لدى الفرنسيين –ورائهم المتفرنسون– في الأثر الحضاري الذي تركه (هكذا) علماء الحملة، وهو أثر لا يتعدى كونه لونًا من ألوان الزيف، فما حرص علماء الحملة عن الكتابة عنه كان لنوازع فرنسية كثيرة في المقام الأول.

فإلى جانب أن ما كتب، كان في الأساس دراسات وتقارير وأوراق.. إلخ قصد بها تأمين وضع الحملة في مصر وتأكيد دورها العسكري، فإن هناك نوعًا من (الفوبيا) أمسكت بتلابيب الفرنسيين عن الحضارة الفرعونية وأساطيرها التي كانوا يعيشون فيها، ومن ثم، حرصوا على أن يتعرفوا على آثار مصر القديمة –وبالتبعية– آثار (ألف ليلة وليلة) الممتزجة في أذهانهم بحريم الشرق وعوالمه الغامضة ومفرداته الساحرة ومن هنا، فإن المتمهل عند كتاب (وصف مصر) لا يزيد على أن يكون تصورًا نفسيًا و "إمبريقيًا" للفرنسيين القائمين في مصر سواء أكانوا علماء أو علميين أو فنانين.

لقد بدأت الأمور أمنية.

هذه حقيقة لا مراء فيها.

واتخذت الصورة تشكيلات كثيرة لا تمت إلى الأصل بصلة.

ولعبت العنصرية فيها دورًا مؤكدًا.

وفي جميع الحالات أصبحت نوعًا من (السيكولوجية الذاتية) إذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح للتعبير عما انتهى إليه الفرنسيون في مصر.

* * *

امتزج الأمن "بالفوبيا" وزيد إليهما الأسطورة وأصبح حاصل هذا كله هذا الزيف الذي يريدون أن يجعلونا نصدقه.

والغريب أن عددًا كبيرًا من الجانب العربي صدق هذا الزيف إما لضعف التحصيل أو لعنف التأثير..

وليس من المصادفات أن يسمى القرن الثامن عشر في الغرب (بقرن شهرزاد).

اختلط الأمن بالهوس.

فإذا بنا أمام (حالة) الفرنسي نفسه وليس المصري بأية حال والأكثر من هذا، فمن كان يبحث عن المصريين في وصف مصر قلما يجد الصور المشرقة للمصريين من الطبقات الوسطى أو الارستقراطيين، وإنما كان التركيز – وهو ما لا نخطأه في جزء الدولة الحديثة في وصف مصر لجومار – على الطبقات الشعبية، وهذه الفئات المغرقة في البؤس والفقر، فجومار –على سبيل المثال– حين يتحدث عن عادات المصريين يترك رجال جامع السلطان حسن (الرائع) – على حد وصفه – ليغرق في وصف حالة من البؤس للطبقات الشعبية، وكأنه يختارها اختيارًا، يقول:

"منازل ضيقة حتى إننا ندرك بالكاد أن آدميين يمكنهم العيش بها، فهي وضيعة وصغيرة حتى ليظن أنها مخصصة على الأرجح للكلاب فهي أكواخ مستديرة ارتفاعها أربعة أقدام ومبنية من الطين الممزوج ببعض الطوب ومفتوحة من أعلاها/ وتعيش عائلة كاملة في هذه الجحور التي يبلغ قطرها أربعة أقدام، ويدفع بؤس هؤلاء الناس المرء إلى التراجع تقززًا واشمئزازًا. وتصدق نفس الملاحظة على المباني المتداعية في المنطقة، والتي بالرغم من أنها تبدو في الظاهر في هيئة لا بأس بها، إلا أنني بمجرد الدخول إليها أخذت برائحة منتنة وفوجئت بالقذارة الشنيعة السائدة بها، كما أن..".

وتتواصل الصور التي يريد الكاتب أن يصفها لنا أو ينقل دلالاتها الخفية لنا، وكأنه يريد أن يعكس حالة الفرنسيين المتحضرين في هذا المكان المتخلف في الإطار العام أن المنازل ضيقة وهي أقرب إلى الأكواخ منها إلى المنازل (لاحظ ارتباط هذا الوصف بوصف الهنود الحمر).

وأن عائلات بكاملها تعيش في مثل هذا الكوخ أو الحجر، والآدميين كالكلاب!!

فضلاً عن الاستطراد في أكثر من موضع عن القذارة التي يتقزز المرء منها، نحن بالطبع لا ننكر وجود مثل هذه الأكواخ والبائسين فيها، بل لا ننكر أنها موجودة حتى يومنا هذا في عديد من مناطق مصر، غير أن المهم لدى جومار، أنه يركز على هذه النقاط أو المناطق، ويتحدث عنها كثيرًا، ويدفع فنانيه ليعيدوا رسمها عبر رموز لها دلالة ما انتهى إليه الشرقي في نظر الغرب، أو فلنقل، هذا الكائن المتخلف البائس في مواجهة الغرب.

أليست هي الشوفونية.

أليست هي العنصرية المعاصرة.

والآدميين (كالكلاب).

فإذا آثرنا أن ننقل هذه الصورة البشعة التي أثارها جومار، لدينا – على الجانب الآخر– صور أخرى بعضها يغلو في هذا الواقع، وبعضها الآخر يغلو – على المستوى

الأخلاقي– في الواقع النفسي والاجتماعي والثقافي لهذا الشعب، وكأنه يغلو في وصف تصور الفرنسي لنفسه ولحياته في هذا الواقع.

وهو ما يدفعنا إلى أن نذكر القارئ الكريم من آن لآخر – وهو ما نعتذر عنه – لهذه الصورة التي يصنعها علماء الحملة وفنانوها في مصر لفرنسا وهو ما ينتقل بنا إلى صور أخرى.

إن جومار كان يدرك، أو لا يدرك أن ما يفعله هو (وصف) لفرنسا. ومن هنا، فهو كان يعمد أحيانًا إلى الوصف الشائن للمصريين، وفي الوقت نفسه، كان منتبهًا لهذا الواقع، وذلك الوصف الذي سوف يمليه إلى كاتبه، وهو ما تصوره لنا مشاهد القاهرة الأخرى، وخاصة حين يصل إلى المؤسسات الخيرية بها.

إنه بعد أن يعرض لشكل المبالغ المخصصة للأعمال الخيرية وكيفية تنظيمها ببراعة ودقة من المصريين يعترف في السطر التالي مباشرة قائلاً:

"كانت لدينا في أوروبا معلومات خاطئة عن مؤسسات الإحسان عند المشارقة وعن الإهمال المطلق لحكامهم فيما يخص الإعانات العامة".

ويسرف صاحب جومار هنا، ليعترف أكثر، أو بشكل أكثر إيلامًا أنه إذا كانت توجد في البلاد ملاجئ مثل هذه الملاجئ التي تعرفها المؤسسات الغربية، فإنه كان في مصر وسوريا (ملاجئ للعميان من زمن بعيد).

وإذا كان بعض الملوك الفرنسيين أنشأوا هذه الملاجئ في فترات سابقة فإن المصريين سبقوهم قبل هذا بوقف أطول، وعلى هذا النحو، يصف جومار (حالة) العالم الفرنسي الذي يقول (وهو هنا جومار) ما يلي:

"وهكذا فقد أعطى لنا المشارقة المثال الأول"

وما يقال عن الملاجئ يقال عن الظواهر والمظاهر الأخرى، فهو في باب (الكتاتيب والأسبلة) يقف مندهشاً أمام هذا الكم المروع من الأسبلة – وهي من أعمال الخير– ليقول في عجب:

"لا توجد مدينة أوروبية تحوي هذا القدر من الأسبلة".

وهو ما ينتقل بنا إلى وصف اجتماعي آخر وأكثر دلالة.

إنه حين يصل إلى (الأديرة والكنائس يدهشه هذا الواقع الذي كان هو والأوربيون يجهلونه تمامًا، إنه – على العكس مما هو شائع في الغرب يجد حالة من الرحابة وعدم

التعصب تدفعه لإبداء دهشته الشديدة فيما يرى، ويسلمه إلى قدر مــن الإعجــاب يحــاول أن يسيطر فيه على زمام فكره وإعجابه.

إن دهشته تزيد، وتتحد في هذه العبارة:

"إننا سندهش من أن الدهماء الكثيرة الجهل والتي تعد متعصبة بدرجــة كبيــرة، لا تسب اليهود أو المسيحيين الكاثوليك والأقباط والأرمن والسريان والروم.. إلخ"

إن مصر بها ديانات كثيرة، ومذاهب أكثر، غير أن الحرية تسود فــي كــل أنحــاء الوادي، وهو من آن لآخر، كلما رصد لظاهرة لافتة لديه كحرية الكنائس يقول، وكأنه يفاجأ:

"وهذه أيضًا نقطة لدينا عنها في أوروبا أفكار غير مطابقة للحقيقة"

ويلتفت لظواهر غريبة كل الغرابة لدى المفهوم الغربي عما يحدث في مصر، وهــذه الظاهرة نلخصها في عبارته التي يسهب فيها حول الحي اليهودي ومعابده وسكانه، يقول حين يصل إلى فصل الحارات:

"ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة أنه في وسط هذا التجمع اليهودي الكبيــر يوجــد مسجد".

وكان المجتمع المصري في بداية القرن التاسع عشر لا يعرف أجناسًا أو أديانًا أخرى، وهو تعبير يمكن أن ينعكس على الفهم الغربي لنا أكثر مــن كونــه وصــفًا يعكــس الواقــع المصري، وهو ما ينتقل بنا إلى ظاهرة أخرى.

* * *

وهذه الظاهرة ترتبط بالحضارة والعلم أكثر من أي شيء آخر، كان الغربيون يتحدثون – في ذلك الوقت، وحتى الآن – عن عكس هذا الواقع المزدهر لدينا، بل الغريب أننا أمام من لا يزال يتحدث حتى الآن عن الواقع الحضاري المزري الذي جاءت الحملة الفرنــسية (مــن أوروبا) لتجدنا فيه.

والكثير من الكتاب، من المثقفين (وهو أمر يدعو للألم) ما زال يرانا متخلفين، خاصة، حين يتعلق الأمر بهذه الفترة التي جاءت فيها الحملة الفرنسية إلى بلادنا وبعيدًا عن ذكر أسماء كثيرة، فقد أشرنا إلى كثير منها من قبل، فسوف نتوقف عند هذا الوصف الذي يكتبه أوربــي/ فرنسي.. عاش مصر في هذه الفترة التي تتحدد بنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لنر إلى أي مدى:

أولاً: يخطئ مثقفونا كثيرًا في الحكم على الواقع الفكري والحضاري لنا حينئذ.

ثانيًا: يمضي في هذا السبيل عدد من الغربيين ممن تخدم هذه الأفكار أهدافهم السيئة. فلنتمهل أكثر عند هذا الجانب.

من الملاحظ أن كثيرًا مما يأتي به علماء الحملة إنما يعبر عما يريدون – وهو استنساخ أشرنا إليه فيما سبق– وهو ما يدفعنا إلى رؤية الغرب لنفسه في مرآة هذه المغامرة الفاشلة إن جومار حين يتمهل عند سكان القاهرة – على سبيل المثال – يتحدث كثيرًا عن الصورة الصافية التي يجدها في كثير من مناطق العلوم ولدى المتعلمين، بل يشير بإعجاب إلى ظاهرة أثناء إشارته إلى وجود عدد كبير من السود والزنوج والحيثيين والنوبيين في مصر، والذين يعملون في أعمال وضيعة إلى حد ما لطبيعة هذه الفترة، وهذه الظاهرة تتمثل في أن الكثير من هؤلاء ممن يعملون في المنازل كخدم –على سبيل المثال– إنما يعاملون معاملة طيبة، وكان هذا شيء شاذ في هذه البلاد الشرقية ومصر بوجه خاص، وهو بعد أن يشير إلى ذلك يقتضب التفسير حين يردف ذلك بقوله:

"وترجع دماثة معاملة السادة لعبيدهم إلى أسباب سيكون من قبيل الإطالة استعراضها هنا".

وهو يتوقف عند ملاحظة تؤكدها الحقيقة والتكوين المصري بدوائره الحضارية منذ الزمن البعيد، وهي أن المصريين أقرب إلى الأوربيين من سكان إفريقيا في الجنوب من الحبش – على سبيل المثال – وكيلا تتماوج ملامح الصورة التي ينقلها جومار، فسوف ننقل نحن – بدورنا – عبارته هو بالنص، يقول:

"إذا كان الأحباش قابلين للتحول إلى حضارتنا" وهو أمر/ لا مجال للشك فيه منطقيًا، فإن سبيلهم إلى ذلك هو الإقامة بعض الوقت بمصر حيث يجدون عادات وأفكارًا ليست متخلفة تمامًا عن عاداتهم وأفكارهم، فإن ذلك، إذا صح القول، تحول إلى نظام الأفكار الأوروبية المختلفة إلى حد ما عن طبيعة الأشياء في داخل الإفريقية".

وهذا النص، وإن حمل – ضمنيًا– نزعة عنصرية تجهد أن تخفي نفسها من الجنس الأسود في جنوب القارة، فإنه لم يستطع أن يخفي حقيقته اقتراب المصريين من الغرب، وقابليتهم للتوائم معهم والارتباط بهم أكثر من غيرهم.

وهو ما قال به العديد من الغربيين من طلائع الحملة الفرنسية في القرون السابقة سواء من الغربيين أو العرب، وهو يعود إلى تكوين المصري لا يمكن أن يصف معه صاحبه – تاريخيًا– بغير التقدم ويمتد الفهم الفكري والحضاري للغرب عن الشرق إلى آفاق أخرى كثيرة، وعلى سبيل الإشارة فقط، نشير أيضًا إلى ترديد جومار لأكثر من مرة إلى أن النظام الذي كان يتمتع به الشعب المصري في ذلك الوقت هو الاعتدال، والظواهر الصحية من

طبيعة الهواء والماء والغذاء "التي تساعد على إطالة الحياة في هذا البلد، الذي يمكننا أن ننظر إليه كبلد صحي جدًا بالرغم من الأمراض الفتاكة التي تبتليه باستمرار.."

وهو ما يستطرد فيه – وحوله كثيرًا كتاب وصف مصر، وبخاصة، الجزء الحـــديث؛ حيث جاء العلماء ليعاينوا بأنفسهم هذا البلد الأسطوري وهذا الشعب المتخلف، كما صور لهم، فإذا بهم،عبر ما يواجهونه – يكتشفون أن هذه البلاد كانت تتمتع بقدر كبير من الرقي. لا نغلو فيها كيلا يظهر من يسرف – في الاتجاه الآخر، من بيننا – في تخلفنا.

وبناء على ذلك، يصبح من المحقق أن ما حاول أن يقوم به العلماء من الفرنسيين في مصر وأسموه بعد أن عادوا إلى بلادهم (وصف مصر) لا يعدو، في الواقع الحقيقي أن يكون هو وصفًا لهم، لذواتهم (وصف فرنسا) إنه (وصف فرنسا) وليس (وصف مصر) بأية حال.

إسرائيل وبونابرت.. علاقة خطرة

ما هي العلاقة يبن إسرائيل وبونابرت..؟

سؤال خفي وعلاقات خطرة.

فلنرجئ الخفاء والخطر إلى نهاية هذه السطور.

ولنتمهل أكثر – عند المفاجأة التي نعيش فيها هذه الأيام.

* * *

المفاجأة جاءت أثناء مرور قرنين من الزمان على مجيء الحملة فكما هي عادتنا دائمًا نجد أنفسنا – فجأة، أو هكذا نصور لأنفسنا – أننا أمام مرور نصف قرن على نكبة ١٩٤٨. المناسبتان وقعتا في شهر واحد – مايو– نصف قرن وفي خط متصل يبدأ من الحملة الفرنسية نهاية القرن الثامن عشر ليمر بهذه النكبة قرب منتصف القرن ليصل إلى نهاية القرن العشرين.

يمر علينا الآن نصف قرن على النكبة.

وبين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن العشرين – قرنين– نستعيد فيها نكبات أخرى سابقة ولاحقة كثيرة.

ولأن بداية النكبات في العصر الحديث تبدأ بالحملة الفرنسية.

ولأن أعنف النكبات تمر بنكبة فلسطين (قبل أن يصل إلى زلزال الخليج) فإن الأمر يضعنا أمام سؤال هام، هو:

ما هي طبيعة العلاقة بين بونابرت واليهود؟

الإجابة تجيء بسرعة، من طبيعة العلاقة بين المركزية الغربية واليهود وسرعان ما نعيد السؤال ثانية:

هي العلاقة بين المركزية الغربية وإحدى مراكزها في اللحم العربي هنا..؟

وسرعان ما نعيد – ونستعيد – السؤال بشكل أكثر دقة.

ما هي طبيعة العلاقة بين فرنسا – منذ عرفناها بنابليون – وإسرائيل منذ عرفناها باليهود ودورهم السياسي؟

ويتوازى مع هذا كله ويمتزج به ما يردد الآن كثيرًا من أن الحضارة الغربية هي الحضارة المرشحة للبقاء في العالم الآن (لنتذكر: مقولة هرتزل في مؤتمر بال حين يصف

قوى اليهودية المنتظرة لتلعب هذا الدور الغربي في المنطقة بأنها "مركـزًا للحـضارة أمـام البربرية" وترديد مقولة الغرب الحضاري والشرق البربري في كل من النكبتين الحملة والنكبة وبينهما، وترديد مفاهيم جديدة كنهاية التاريخ والحضارة في الغرب.. إلخ).

ولأن الدور الفرنسي هو الذي يهمنا (في هذه المركزية)، فسوف نتمهل عند بونابرت في علاقاته باليهود منذ فترة مبكرة.

ولنتمهل عند عدة أمثلة.

* * *

إن علاقة الغرب بإحدى طلائعه اليهودية تلفت النظر لتوحيد التوجه والهدف ويبدو أن فرنسا – قبل الحملة الفرنسية – كانت أول من طرح بشكل جدي هذه العلاقة في فكرة توطين اليهود في فلسطين في الوقت الذي لعب فيه بونابرت دورًا غير مباشر لتأكيد هذا الدور وجعل إسرائيل بحق (تلميذه) بونابرت – كما سنرى.

لنتوقف عند الحكومة الفرنسية قبل أن نصل إلى نابليون.

في هذا يقول أكثر من مصدر أن حكومة الإدارة الفرنسية أعدت عـام ١٧٩٨ خطـة سرية لإقامة "كومنولث يهودي في فلسطين" حال نجاح الحملة الفرنسية فـي احـتلال مـصر والمشرق العربي "بما فيه فلسطين" وذلك مقابل تقديم الممولين اليهود قروضًا مالية للحكومـة الفرنسية التي كانت تمر آنذاك في ضائقة اقتصادية خانقة، والمساهمة فـي تمويـل الحملـة الفرنسية المتجهة صوب الشرق بقيادة بونابرت.

ولدينا أمثلة كثيرة للدور الذي لعبته الحكومة الفرنسية لصالح اليهود في هـذه الفتـرة انطلاقًا من الصراع الأوروبي، وطمعًا في الحصول على مكاسب – خاصة– مـن بريطانيـا التي كانت تحتل مراكز متقدمة ومناطق شاسعة في الأراضي العثمانية.

* * *

وحين نصل إلى نابليون نلاحظ تردد عديد من الاتجاهات التي تمعن في وصف علاقة بونابرت باليهود، غير أن أكثرها بعيدًا عن الحقيقة هذه الوثيقة التي قيل أن نابليون كتبها أمام أسوار عكا لاستمالة اليهود بمنحهم وطن قومي.

إن ما ينسب لنابليون – في تعبير بشير السباعي – من تنبيه لمشروع إنـشاء الدولـة اليهودية أو تأكيد الدور الفرنسي الذي يمكن أن تلعبه فرنسا لإحياء القومية اليهودية، وهو خطأ

وقع فيه الكثيرون (أهمهم عندنا الأستاذ هيكل في كتابه المفاوضات السرية، وريجينا الشريف في كتابها عن الصهيونية، وأمين عبد الله في كتابه عن مشاريع الاستيطان اليهودي.. إلخ).

ومن البدهي أن موقف نابليون لم يكن متعمدًا في تنبيه الدولة اليهودية في شكل نشر بيان/ وثيقة موجهة إلى اليهود إبان فتحه عكا، وإنما أسهم في هذا – جهات صهيونية سياسية عديدة – لتضخيم الفكرة التي كانت تروج لها لإنشاء وطن لليهود في ذلك الوقت، لا يعني هذا أن نابليون لم يكن ضالعًا في هذا الاتجاه، وإنما الأرجح – كما سنرى– أنه فعل ذلك بشكل غير مباشر، فمن المؤكد أن كل ما كان يحرك بونابرت في فتوحاته في الغرب أو الشرق هو أنانيته لبناء إمبراطورية ضخمة والإفادة من الأقليات في أي مكان يصل إليه، وليس بالضرورة – كما قيل أنه تبلور فيما بعد في بيانه المزعوم أثناء حصاره عكا إلى "تثبيت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي كانوا يعيشون فيها.." لم يكن نابليون إذن وراء هذا البيان.

لكنه كان – بالقطع – وراء الدور غير المباشر الذي قام به لصالح اليهود، وهذا الدور يمكن أن يكون الريادة فيما قامت به الصهيونية السياسية.

وهو ما سنراه بشكل أكثر وعيًا باستعادة صورة بونابرت وظلاله طيلة هذه الفترة.

* * *

فمن المصادفات الحميدة أنه جاءني – أثناء كتابة هذه السطور – رسالة بليغة من د. ليلى عنان أستاذة الحضارة الفرنسية بجامعة القاهرة تؤكد على هذا جاء فيها:

.. إن بونابرت هو أول من مهد لإسرائيل استعمار فلسطين، مهد لليهود الطريق بتخريب سواحل فلسطين وطرد سكانها، كما نقرأ في كتاب "هنري لورانس" عن الحملة الفرنسية في مصر، فعندما، أوقف الجزار باشا زحف الجيش الفرنسي أمام عكا، وعاد بونابرت مهزومًا إلى مصر، أمر بتخريب السهول الساحلية وتطبيق سياسة الأرض المحروقة؛ مما دفع فلسطين تلك الفترة إلى تركها واللجوء إلى الأراضي المرتفعة، فجاء اليهود المهاجرين بعد ذلك يزاحمون أهل البلد في هذه الأراضي المنخفضة، التي كادت أن تخلو من السكان بسبب تخريب بونابرت لها، ينهي لورانس وصفه لما حدث بقوله: "مرور بونابرت على فلسطين كان له عواقب فادحة لمستقبل هذا البلد".

الأمر إذن أخطر بكثير من الوثيقة المزيفة، فبونابرت كما نقرأ لدى لورانس:

– إذا ما استقر في مصر أراد الزحف على سوريا حيث ينتظره الدروز والموارنة والعرب ومعهم الأكراد والأرمن، والفرس والتركمان حتى يستولي على القسطنطينية إلى آخر الأحلام التي سيحطمها الجزار باشا بصموده في عكا.

يعود صوت أستاذة الحضارة الفرنسية لتؤكد أن إسرائيل هي (التلميذة) النجيبة لبونابرت، كيف؟ تواصل:

" كان نابليون أول من أبدع الحجة الأخلاقية لغزوه بلدًا مسالمًا وتحويله إلى مستعمرة لنشر الحضارة الغربية في منطقة قالوا عنها أنها نائية ومتخلفة. فكان التعاطف الأوروبي لهم ضد العرب، ومن أهم أسباب مساعدة الغرب لهم، ولذا أصبحت إسرائيل مستعمرة تلجأ إلى هذه الحجة الواهية التي ابتدعها بونابرت لتبرير فتوحاته التوسعية"، نفس الكلام سنراه مكررًا في كتاب (الميموريال) الشهير حيث كان نابليون المنفي يطلق تهويماته في آخر حياته. نلاحظ أن أسماء هذه الشعوب كما كان يقول عنها بونابرت، لا تحتوي على شعب اسمه اليهود، لسبب بسيط، إن عدد هؤلاء اليهود، في ذلك الزمان والمكان، لم يكن ليكفي ذكرهم بالمرة، فلا يستطيع بونابرت أن يعد أناسًا لا ذكر لهم ولا وجود، بإنشاء وطن لهم، ولكن تخريبه لفلسطين فتح لهم أرضًا لما استطاعوا الاستيلاء عليها دون فعلته الشنعاء تلك".

وتصل د. ليلى إلى منهج التضليل الإعلامي لإسرائيل كما استفادت به من نابليون ممثلاً في إنشاء الدواوين المحلية، فهذه الدواوين التي تكرم بإنشائها في مصر هي التي تبتدعها إسرائيل باسم "الحكم المحلي" في فلسطين؛ كيف؟ تذكر أستاذة الحضارة الفرنسية خطابات كليبر التي نشرها لورانس أيضًا، فتضيف:

(هناك البنود التفصيلية لهذه الدواوين، لا يتحركون إلا بأوامر الضابط الفرنسي، والاسم "حكم ذاتي"! فالاسم مضلل، حكم محلي وشرطة وطنية، والحقيقة أن هذه الدواوين بصراحة لا هدف لها إلا حماية المستعمر وبأمره، فهي أولاً وأخيرًا، مسئولة عن النظام والأمن.. هذا النظام وذلك الأمن لا يعني إلا كبت الثورات منع المتمردين من إضرار الفرنسيين.. كما أن الشرطة الفلسطينية تعتبر المسئولة الأولى عن سلامة المستوطنين اليهود، وعليها أن تحافظ، قبل كل شيء على النظام.. أي نظام..)

تنتهي رسالة أستاذة الحضارة الفرنسية ولا تنتهي تفاعلاتها في هذه الفترة.

إن ظل نابليون لم يبرح محاولات فرنسا الكثيرة لاستكمال الهيمنة الغربية عبر إسرائيل هكذا بصراحة ودون مواربة، ودون البحث عن الآفاق المشتركة أو العوامل الحضارية التي يصدعون أدمغتنا بها ليلاً ونهارًا.

لقد شهد القرن التاسع عشر تصاعد الصراع بين الدول الغربية للإفـادة مـن أمـلاك الدولة العثمانية، وبوجه خاص فلسطين ويسجل منتصف هذا القـرن أو قبلـه بقليـل تـوالي المركزية الغربية لكسب نفوذ لها في فلسطين فشهدت الأربعينيات من القرن الماضي افتتـاح قنصليات غربية كثيرة كان من بينها القنصلية الفرنسية وإن كان الدور البريطاني أكبر تأثيرًا.

وهذه هي الفترة التي رددت فيها المصادر أن نـابليون الثالـث يعلـن عـن نوايـاه الاستعمارية لاحتلال منطقة الشرق العربي (وخاصة فلسطين) ويبدي اهتمامه بتوطين اليهـود في فلسطين (وهو اتجاه تردد لدى الشخصيات المحيطـة بـالإمبراطور الفرنـسي). ويـرى د.محمود منسي(*) أنه ظهرت في فرنسا في ذلك الوقت اتجاهات فردية لتشجيع اليهود علـى الهجرة إلى فلسطين "أشيع أن الإمبراطورة أوجيني شملت برعايتها لجنة تكونت في بـاريس من أجل تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وقد ظلت هذه الأصوات تعمل في هذا الاتجاه، أوجيني زوجة نابليون الثالث، ولاهران سكرتيره الخاص وغيرهما حتى جاءت هزيمة فرنسا أمام ألمانيا ١٨٧٠ مما جعل فرنسا تبتعد عن هذا الاتجاه لأسباب كثيرة.

باختصار، اختفى الدور الفرنسي المؤيد للصهيونية السياسية إلى بداية القرن العشرين؛ حيث ارتبط مصير فرنسا بالعطف على قضية الصهيونية "التي يرتبط نجاحها بنجاح الحلفاء"، غير أن هذا الموقف تغير رويدًا رويدًا في الأربعينيات، وعلى مراحل، حتى عرفنـاه بـشكل أكثر سفورًا في أزمة الخليج ٩١/٩٠ وما زلنا نراه حتى الآن عبر علاقـات خفيـة وخطـرة نحتفي لها ونحتفل بها فلنستعد بعضًا من زخمها الغريب قليلاً.

* * *

وعبر مناورات كثيرة، ويلاحظ البعض أن الحرب العالمية الثانية كان لها أثرها فـي خلق شعور مُوال للصهيونية، ثم جاء قيام دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨، لكي يزيد مـن هـذا الشعور إلى حد ما، بيد أن هذا الدور تصاعد أكثر بداية من الخمسينيات ووصل إلى أقصاه – كما قلنا– في حرب الخليج ١٩٩١/٩٠.

لقد ظهر الدور الفرنسي البشع في ١٩٤٨ فقام بتسليح اليهود ودعم الترسانة الحربيـة خاصة في الدور الذي كشفت عنه الوثائق أخيرًا في عدوان ٥٦؛ إذ منحت فرنسا (جي موليه) لإسرائيل الطائرات الحربية، وأسهمت في إنشاء وتطوير المفاعل النووي، وظهرت ثمار هذا

(*) محمود حسن صالح منسي، فرنسا وإسرائيل، بدون، ١٩٩٤.

التعاون في حرب ١٩٦٧ وإن اتخذ ديجول قراره المتأخر بعدم التعاون مع إسرائيل على إثـــر اكتشافه بدأها بالحرب.

هذه أحداث تكاد تكون ثابتة في الذاكرة الوطنية للشعب العربي، الدور الفرنسي إلـــى جانب إسرائيل، وهو دور ينتمي إلى المركزية الغربية سواء اتسمت في نهاية الحرب القـــرن الثامن عشر (بالحملة الفرنسية)، أو التكريس الفعلي لدولة صهيونية سياسية أو عبر احـــتلال وويلات شعب الجزائر.. إلخ مما يشير في نهاية السياق إلى هذا الدور المركـــزي الفرنـــسي الذي يستبدله الآن بالدور المركزي الأمريكي لظروف العالم الجديد عقـــب ســـقوط الحـــرب الباردة وتولي الولايات المتحدة لقيادة التنظيم العالمي الجديد الذي عرف فـــي نهايـــة القـــرن العشرين (بالعولمة).

* * *

وما يقال من تعاون قمة الدولة الفرانكفونية (فرنسا) مع قمة الدول العربيـــة (مـــصر) الآن ليس غير وهم لم يقصد به – إذا أحسنا النية – غير استبدال التاريخ باتفاقات ثقافية بريئة في الظاهر، في حين أن مثقفين يراوغون فيها من الوجه الحقيقي البـــشع للغـــرب الفرنـــسي بمركزيته الكامنة آثر صعود المركزية الأمريكية.

الفن في خدمة الإمبراطور

حتى مجيء بونابرت إلى مصر وعودته منها إلى فرنسا، كان الميثولوجي اليوناني هو النموذج السائد في الفن، وهو مع مقته لهذا المذهب كان لا يبدي – منذ البداية – إعراضه عنه، بل كان القائد الشاب يبدو راعيًا للفن، كما كان – في مصر قبل ذلك – يبدو مهتمًا أشد الاهتمام بالإعلام ومخاطبته المصريين وهو ما يلقي في طاحونة الأسطورة النابليونية وهو في الوقت نفسه حاول التقليل من الهزائم التي أحيقت به سواء في مصر أو بعد أن عاد إلى فرنسا على إثر التنديد بالمجازر التي قام بها في الشرق.

لنترك الإعلام الآن ولنتمهل أكثر عند الفن.

كان اهتمامه بالفن ينطلق في الأساس الأول إلى تأليه صورته الذاتية واختراع أسطورته وفي الوقت نفسه لإعادة صنع الإمبراطورية الفرنسية التي هي – لدى فنانيه– أكثر أهمية من الحديث المستمر عن إمبراطورية أخرى والتاريخ يحفظ لنا مقولة فنانه الأثير إليه هو ماجرو، الذي كان مفتوناً بشرق الإمبراطورية رغم أنه لم يذهب إليه، حين قال في رسالة إلى والدته:

"ليصور الآخرون بطولة الإسكندر المقدوني، أما أنا فأطمح إلى تصوير إسكندر العصر الحديث بونابرت، وتلك الملابس المملوكية الرائعة، وتلك الخيول العربية الرشيقة".

وجاء في كتاب (الحملة الفرنسية) نقلاً عن تولار، غلو عدد كبير من القساوسة في مقارنته بالرب.

لقد ذهب البعض إلى أن نابليون ممثل الرب على الأرض، وقال أنه واثق أن الرب يأسف أنه قد سبق أن أرسل السيد المسيح لأنه يعرف أن نابليون كان أجدر بأن يكون ابنه.

بينما قال آخر:

"إنه لشرف عظيم للرب أن عبقرية خارقة (مثل عبقرية نابليون) تسبح له".

وهو ما يذكرنا باختفاء أحد جنرالاته حين استقبله "كقنصل أول" فقال في وضوح شديد:

"خلق الرب بونابرت ثم استراح".

وما قاله ماجرو قاله عدد كبير من فناني عصر الإمبراطورية ومؤرخو الفن في عصره حتى وقتنا الراهن دون خلاف في تأكيد أسطورة نابليون الذي كان يحرص الإمبراطور أكبر الحرص على تأكيدها، سمعنا هذا من تولارد وجان تولارو هيريو كما عرفنا

هذا وقرأناه عند بياتريس كاسبريان وماكسيمليان روبل وردده بشكل ما لـــدى شـــاتوبريان.. وغيرهم كثيرين.

بيد أن قائمة الفنانين الذين لعبوا دورًا أيديولوجيًا أكثر من الدور الميثولوجي أكثر مما يمكن رصده في فصل كهذا، كما استمر هذا التصور الأيديولوجي لينتقل من الرحالة والفنانين إلى الأدباء والمؤرخين (وكتاب الحملة الفرنسية للدكتورة ليلى عنان زاخر بهذه الأمثلة).

ولأن اختراع أسطورة الإمبراطور على حساب المنطق والتاريخ والخلق الفني هو ما يهمنا في المقام الأول، فسوف نكتفي بالتوقف عند الفن لنرى إلى أي حد قـــام الفـــن بـــدوره المسرف في الغلو، المتطرف في صنع الأسطورة تحت رعاية بونابرت الزمنية في عـــصره أو –حتى– بعد رحيله.

ورغم أن هذه الأسطورة تعرض لها بالرفض والنقض عدد من المؤرخين الجدد، فإن تأثير الأسطورة في تضخيمه صورة الإمبراطورية أكبر مما تتجاهل الإمبراطور فلنتوقف عند هذه الملابسات قبل أن نحدد الموقف أكثر عبر بعض اللوحات.

* * *

إن دراسة التطور الفني في نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر يرينا كيف استطاع نابليون اختراق الفن وممثليه انطلاقًا من غلبة السياسي على الفنـــي وســـيطرته عليه.

وفي دراسة هامة عن الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي (د. زينة بيطار عـــالم المعرفة ١٥٧، الكويت) يتأكد لنا أن الظروف السياسية التي شاءت أن تحول هزيمة بونابرت وفشله في الشرق إلى "انتصار" سياسي متماثلة تمامًا مع الظروف الفنية التـــي جعلـــت منـــه إمبراطور ذا سلطة مطلقة في التشريع الفني (كما في التشريع السياسي)؛ مما أدى إلى تصوير حملته الشرقية على أنها أسطورة "انتصار" و "فخار" في الفن التشكيلي الفرنسي.

وتفصيل هذا أنه حين استلم بونابرت الحكم في فرنسا كانت الحركة الفنية تعاني مـــن أزمة حادة مردها خيبة الأمل في تحقيق الأفكار الجمالية والفنية التـــي نـــادت بهـــا الثـــورة البرجوازية الفرنسية.

هذه الثورة التي انطلقت من ضرورة تحرير الفن والفنانين من قيود احتكار السلطة الرئيسية والملكية والإقطاعية وتطوير الذوق الفني لدى مختلف طبقات الشعب.. كما نادت بديمقراطية الإبداع، وأخلاقية الفن، وفي جعل الفن عمادًا للدولة وقوة أساسية من قواها الإبداعية، وضرورة رعاية المؤسسة الحاكمة للفن لا كأداة تزينية أو أداة للمتعة وإنما رعاية الفن الرسمية يجب أن تتم لازدهاره ولتأثير الفن السياسي والاجتماعي مما يحتم على الدولة مراقبته.. إلى آخر الأفكار التي دعت إليها الحركة التنويرية في فرنسا.

فعلى العكس من هذا كله راح بونابرت يُظهر نفسه راعيًا للفن وللمواهب الفنية البارزة ومحاولاً تطبيق أفكار عصر التنوير التي هي أفكار الثورة الفرنسية أيضًا على الرغم من أن رسائله ومذكراته وآراء معاصريه كانت تؤكد أن حاكم فرنسا الشاب كان يمقت المذهب السائد الكلاسيكي خاصة. وعبورًا فوق تيارات فكرية كثيرة فقد تحول الفن ليقترب من الأسلوب الوطني أكثر من الأسلوب الكلاسيكي وأن يكون الفنان مؤرخًا لفن فرنسا ليس لمجد الأقدمين، وقد اهتبل الإمبراطور هذا التيار الجديد، فقد تبنى ممثل هذا التيار وهو اموري ديوفال كبير نقاد الفن الفرنسي آنذاك فقام نابليون بتعيينه سكرتيرًا عامًا لوزارة التعليم الشعب فضلاً عن تبنيه لعدد كبير من الفنانين الذين كانوا يقتفون من اتجاهه ديوفال من أمثال جيزو وبونس ودي بويسيه وسان جيرمان راميل وفاير وديبوميريبل وغيرهم من أعلام النقد، النظرية الفنية الجديدة خاصة أولئك الذين كانوا يتمتعون بصلاحيات واسعة ونفوذ كبير وحاسم في عهد بونابرت، ويشير البعض هنا إلى أن نابليون رعى ممثلي هذا التيار وشجعهم كما أحاط نفسه بهم، وبهذا يكون نابليون قد أمسك بالعصا الفنية المعاصرة من طرفيها، وهو الذي برع في لعبة الموازنات السياسية والفنية، ومن هنا، فليس من قبيل المصادفة أن يزدهر "الموتيف" الشرقي المستوحى من حملة نابليون الشرقية في فن التصوير، وفي النوع الاستشراقي منه بالذات.

ويعود ذلك إلى أن نابليون كشخصية تامة الاستعداد والقدرة على صنع المجد الذاتي والقومي في السياسة والثقافة الفرنسيين إبان حكمه، استطاع "إعادة الأسد إلى عرينه" بعد فترة الفوضى والصراع السياسي التي شهدتها فرنسا وخاصة الحركة الفنية فيما بين عامي ١٧٨٩-١٧٩٩، فما كانت الثورة قد حققته من إنجازات لتحرير الفن والفنان، وديمقراطية التعبير، احتواها بونابرت وجهازه الحاكم (سياسيًا وثقافيًا) وأدخلها برضى في قوالب وعلاقات وأساليب ديكتاتورية بحتة تمثلت في عملية "أدلجة" الفن والثقافة وربط الفنان (قدرًا وإبداعًا) بعجلة الجهاز السياسي الحاكم.. وباختصار لم يعرف الفن الفرنسي شخصية حازمة كنابليون ركز على فن التصوير للدعاية لذاته ولسياسته لسبب هام وأساسي يتلخص في قناعة الحاكم

الشاب الطامح لبريق المجد بالنتائج السريعة لوظيفة الفن في خدمة سياسته وأيديولوجيته والمنطلقة من مفهوم عملي بحت هو عجز فني العمارة والنحت عن المواكبة السريعة للأحداث السياسية والتاريخية التي كانت تفرزها المرحلة.

وقد شهدت هذه الفترة عدة فنون أسهم فيها كبار الفنانين في عصر نابليون لتخلد حملته الشرقية وشارك فيها في فترة مبكرة فنانون معروفون وأشرف في المرحلة الأخيرة عليها نابليون وفيفان دينون كما صنعت بعض الميداليات التذكارية التي خلدت بونابرت في حملته على مصر وقتها (عجلة النصر التي تجرها الجمال).

وعلى هذا، زخرت هذه الفترة بهذه الفنون التي تؤكد ولع نابليون بالأعمال التي تصور المعارك التي خاضها بالطريقة التي يراها هو، "فبمجرد ما كان يرى صورته تزين خلفيتها الأهرامات رمز الخلود والأبدية كان ينتابه إحساس وهمي بالانتصار".

لذلك نرى أنه في عهد نابليون – كما يشير البعض – قد حول فن التصوير إلى مرآة عاكسة للواقع السياسي والأيديولوجي الذي فرض عليه مفهوم "السياسة والفن من فوق" وربط الإبداع بعجلة السياسة أو بعجلة السلطة السياسية.

وعلى هذا سعى بونابرت الفرنسي ليحل محل الأبطال اليونانيين. الأكثر من هذا أن نابليون تدخل في شكل مباشر في طرق الرسم أو التشكيل الفني لهذه اللوحة أو تلك.

ونستطيع أن نجد في الصالون الذي افتتح عام ١٧٩٩ سلسلة لا متناهية من اللوحات المكرسة لتمجيد شخصية بونابرت وعائلته وحروبه وقادته وجنوده، كما تكرر هذا في هذه الصالونات التي شهدتها باريس في العقد الأول من القرن التاسع عشر بباريس.

ويقول التاريخ الفني أن الإمبراطور كان يحدد بنفسه أسماء المعارك وموضوع اللوحة ويطلب من وزير داخليته ورئيس إدارة المتحف اختيار الفنانين بل ويشرف على تنفيذ الفكرة ثم يحدد هو طريقة عرضها والوقت المتاح لذلك، وكثيرًا ما كان يرى وهو يفتتح المعارض الفنية الأكثر من هذا أنه كان معروفًا عنه أنه يغدق على فنانه المفضل جان جرو رعايته وحبه.

"لأن هذا الفنان استطاع طوال فترة حكم بونابرت أن يلبي كل ما يطلب منه بدقة ووفقًا للمعايير الأيديولوجية والسياسية والفنية الإمبراطورية".

وسوف نكتفي بهذا القدر من سيطرة الإمبراطور على الخلق الفني ونتمهل عند أهم اللوحات التي رسمت في هذا الصدد.

* * *

ولكثرة اللوحات والأمثلة الصارخة في هذا الصدد، سوف نتمهل عند بعـضها ممـا يرتبط بوجود بونابرت في مصر، أو ما يرتبط بذلك، مشيرين منذ البداية إلى عدة ملاحظـات هامة:

أولاً: إنها جميعًا تلقى في طاحونة الأسطورة، وهو ما يرتبط بأسطورته هو، وبسيطرة كاملة منه.

ثانيًا: إن اللوحات التي رسمت عن بونابرت في مصر كانت لفنانين لـم يـأتوا إلـى مصر، ومع ذلك، فإنهم أكثر مما رسم عن مصر.

ثالثًا: إن اللوحات التي سنشير إليها سوف نرفقها في الملحق لتكون شاهد عيان علـى طبيعة هذه الفترة ودلالتها فلنتمهل عند بعض هذه الأمثلة.

إننا أمام لوحة "بونابرت" يزور مرضى الطاعون في يافا (نلاحظ أنها رسـمت عـام ١٨٠٤) أي بعد أن عاد بونابرت إلى فرنسا بفترة طويلة. وقد رسمت تحت إمرة نابليون نفسه وتحت عنايته وتوجيهاته، وقد كانت تتصرف – في الأصل – إلى تأكيد أسطورته في الشرق، خاصة، أن هذه الفترة التي رسمت فيها كانت تشهد محاولات ضده لتشويه صورته للمجـازر التي ارتكبها في الشام.

واللوحة في مجملها العام – وإن كانت تنفي وحشية الإمبراطور في الشرق – فإنهـا تمثله كالمسيح في حركته مما يقرن بينه وبين المسيح (انظر كيف يشفي المـسيح الأبـرص، إنجيل مرقص، الإصحاح الأول ٤٠-٤٢)، كما أن أهمية اللوحة تعود إلى أنها اعتبرت مـن رواد الفن (البيان الأول الاستشراقي) كما يذهب البعض

(انظر على سبيل المثال BOEE MP. BARON AND ANPOLION PARIS 1946)

نحن أمام لوحة أخرى عن ثورة القاهرة في ٢١ أكتوبر ١٧٩٨[*].

في هذه اللوحة نجد الفرنسيين المحاربين فيها شباب ووسامة وشجاعة رزينة – وأنـا هنا استخدم ألفاظ د. ليلى – بينما الثوار المصريين من الزنوج – هكذا – عرايًا تمامًا والشرر يتطاير من عيونهم، وكأنهم وحوش معتدون على الجند الفرنسيين المتحـضرين فـي لبـسهم وسماتهم الرصينة.

أما المملوك الأبيض الوجه، فإن ملابسه فاخرة، يسقط في غيبوبة يسنده أحد هـؤلاء العبيد حتى لا يقع على الأرض.

---

[*] انظر ندوة د. ليلى عنان بقسم اللغة الفرنسية بآداب القاهرة بين ٢٣-٢٦ مارس ١٩٩٨).

وهي لوحة تظهر – على العكس مما هو معروف – بطولة الجيش الفرنسي في وقت لا نجد أثرًا للمقاومة المصرية التي أبلت بلاءًا حسنًا في ثورة القاهرة الأولى، وهو ما يعترف به أكثر من فرنسي شهد هذه الثورة وشارك فيها، وهو ما تؤكده مراسلات عديد من الجنود لذويهم في فرنسا..؟

لدينا لوحة أخرى بعنوان (بونابرت في الجامع الكبير) ويقصد به جامع الأزهر.. وبنابرت ينزل – كما نرى في اللوحة – من أعلى اللوحة، وأكنه ينزل مع النور من السماء الزرقاء من خلفه، على جواده الأبيض، ومن تحته درجات لم نعرفها في يوم ما في الأزهر.

وكأن بونابرت هنا ملاك يجلب النور إلى ظلمات المساجد.

وكأن المهزومين يسجدون له في ظلمات المسجد من تحته.

في حين نجد امرأة عارية – في الجامع! – تتوسل إلى السماء.

والمنظر العام يرينا أن هناك من يحارب الصليبيين قبل الحملة بخمسة قرون.

في حين أن التاريخ يذكر لنا أن الفرنسيين الغازين هم الذين دخلوا الأزهر بجيادهم، وأن بونابرت لم تطأ قدماه يومًا أي جامع.

إن اللوحة تبدو في شكل نوراني، توحي بأن الحضارة الفرنسية التي جاءت مع نابليون هي التي تعمد إلى تأكيدها داخل الجامع القديم.

وكأن الرجل الأبيض يجيء هذه المرة ليحمل عبء هذه الحضارة من أجل البرابرة (وهذا اللفظ تكرر كثيرًا في الكتابات الفرنسية المعاصرة للحملة).

نحن أمام اللوحة التالية التي تصور – في المنظور العام – (بونابرت يمنح سيفًا لحاكم الإسكندرية العسكري).

والصورة على ظلالها الموحية تشير إلى أكثر من دلالة فنحن أمام الفرنسيين الشامخين وهو ما يشير إلى انبهارهم – فضلاً عن الإذلال – بهذا الفارس الفرنسي المتحضر الذي يمنح هذا الكرم لرجل أدنى بكثير منه – وبالتبعية – أدنى من حضارته كما أن التاريخ نصب مثل هذا الحاكم العسكري من داخل البلاد.

فضلاً عن أن التاريخ يذكر أيضًا، أن نابليون لم يقدم يومًا على أن ينصب حاكمًا عسكريًا (مصريًا) لمثل هذا المنصب.

وعلى العكس من ذلك، فإن التاريخ يذكر أن نابليون حين استطاع القبض على محمد كريم المسئول المدني للإسكندرية، وقد كان مصريًا، حرص على أن يمارس العنف معه، وحبسه، وراح يعلن أنه لن يخرج من محبسه إلا بمبلغ ضخم، حدده هو.

ولما رفض محمد كريم دفع المبلغ، وحرص المصريين على ألا يدفعوا للغازي لم يتردد بونابرت عن التعامل معه بهمجية لا تعرفها هذه الحضارة – بالفعل – أمام المصريين. أضف إلى ذلك أن المدقق في هذه اللوحة – كما لاحظ عدد من نقاد الفن – يرى أن المشهد العام في كنيسة وليس في جامع، كما أن الشهود ليسوا مسلمين أمام طغاة، إنه تجسيد لخيالات جاء بها فنان لم يزر مصر في حياته، وقد كان هدفه الأول هو تأكيد أسطورة الإمبراطور وإلوهيته.

من أبلغ آيات الزيف في هذه اللوحة التي يظهر فيها (بونابرت وهو يهدي وشاح الجمهورية ذا الألوان الثلاثة لأحد بكوات مصر) – وهو اسم اللوحة – وحين نعود إلى أصل الحكاية نعلم – كما سبق أن أشرنا، وهو ما جاء في (عجائب الآثار) للجبرتي – نعلم أنه حين حاول وضع هذا الوشاح وتعليقه على صدر الشيخ الشرقاوي، فإن هذا الشيخ غضب (امتقع) لونه وألقى به أرضًا رافضًا هذه التبعية المهينة.

وحين أصر بونابرت أن يرتديه قدم الشيخ الشرقاوي استقالته على الفور وانضم إليه على الفور باقي المشايخ الذين كون منهم بونابرت (الديوان) فيما بعد.

وغني عن الذكر أن فكرة الديوان في حد ذاتها كانت محاولة للسيطرة على هؤلاء المشايخ، ومن ثم، السيطرة من خلالهم على الجموع الشعبية غير أننا في اللوحة نجد شيئًا آخر، نجد نابليون يضع باعتزاز وشاح الثورة الفرنسية على صدر الشيخ، في حين أن الشيخ يبدي ارتياحًا يبلغ درجة السيادة الكاملة في حين لا يخفى عليه الإحساس بمشاعر (الجندي المهزوم).

إن الشيخ الشرقاوي (الذي يظهر بمظهر "البك") نجده في اللوحة يقف بإذلال شديد وهو يتلقى هذه الهدية الثمينة التي تعني الطواعية الكاملة والخضوع الكامل لبونابرت ممثل الثورة الفرنسية. وهو الزيف بعينه.

وببساطة – كما تزيف اللوحة – فإن الشيخ يعترف بجميل المحتل عليه وعلى مصر كلها، إن العنصرية الفرنسية في الصورة هي التي تريد أن تقول أنها العنصر الرئيسي في هذا المشهد، في حين أن قائد المهزومين المتخلفين هو الطرف الآخر.

العنصرية الغربية أبت إلا أن يصبح الفن حتى الفن في خدمة الإمبراطور.

المقاومة.. وحضارة الغرب

قبل ٢٠٠ عام – ٢ يوليو ١٧٨٩ – وطئت أقدام نابليون وجنـوده شـاطئ العجمـي بالإسكندرية ومنذ هذا التاريخ عرفت شعوبنا العربية صورًا عديدة من المقاومة سـواء أمـام وحشية بونابرت في نهاية القرن الثامن عشر أو عنجهية نتنياهو في نهاية القرن العشرين. وما بين الطاغيتين: بونابرت ونتنياهو أعمل السونكي في الشعوب العربيـة العـزلاء، وقبـل أن نستطرد أكثر حول قيمة المقاومة ثمة ملاحظة بدهية نؤثر التمهل عندها لأهميتها.

وهذه الملاحظة تتحدد في توصيف موقفنا من مناهضة الفرنسيس وهو موقف أسـيء فهمه تمامًا لا بفعل الوعي التاريخي الذي يجب أن يتحلى به المثقف المعاصر، وإنما لانحراف في هذا التفكير لدى عدد كبير من مؤيدي الحملة وهذه (الآفاق المشتركة) التي أعلـن عنهـا كثيرًا، وهو انحراف ناتج عن سوء الفهم أو الجمود الذي اتصف به الكثير ممن تبوأوا مكانًـا مرموقًا في حياتنا الثقافية، وأصبحوا يُحـسبون علينـا – لا لنـا – بفعـل الفتـرة الزمنيـة و "البروباجندا" التي استثمروها لفترة من الفترات، كما ينضم إليهم العديد ممن يحسبون علـى السلطة الثقافية الرسمية أو ممن استطاعت الـدعوات الخاصـة لاسـتقطابهم إلـى المعاهـد أو المتاحف الفرنسية..

فلنتمهل قليلاً قبل أن نرى صور المقاومة ضد حد السيف.

أصل الحكاية:

وبادئ ذي بدء فإن مفهوم المقاومة عندنا يختلف عن مفهومه عندهم وهو يتخذ أشكالاً كثيرة ويتسمى بمسميات أكثر وهو تتداخل فيه عوامل الحسابات الشخصية والمواقف المتجمدة والعنجهية الفكرية وربما (الخرف) الذي يصاب به عديد من كبار السن، حتى ليقترب مما هو معروف (بالزهايمر) حيث تؤكد خبرات علم النفس اليوم أن هذا الداء الذي يصاب به صاحبه يدفع به إلى نسيان الكثير، أو الخلط بين الأمور أو استبدال الذاكرة المكتوبـة بـأخرى غيـر واضحة.. إلخ ولنتمهل عند مثال واحد له.

إن بعض هؤلاء يرون أنهم – فقط – المتحضرون أما سواهم فهم أصـحاب العقـول المتجمدة والأوراق الصفراء(*).

إنهم يلتفون حولهم فيرون إن مخالفيهم ينتمون إلى التيار الإسلامي، وهو تيار ينظـر كما يرددون بالحرف الواحد: "... إلى عملية الاحتكاك الثقافي مع فرنسا نتيجة للحملة الفرنسية

(*) انظر على سبيل المثال المصور (٢٩ مايو ١٩٩٨).

على أنها كارثة الكوارث/ ذلك لأن أقصى أماني هذا التيار هو إغلاق كل النوافذ والأبواب في المجتمع الذي يسعى على السيطرة عليه... إلخ".

وعلى هذا أصبح من يقاوم ذكرى الغزو أو يتحدث عن جدوى الاحتفالية أو المجازر التي ارتكبت ضد أهالينا من أصحاب هذا التيار.

(وهي كلها صور من العنف تكررت كثيرًا منذ عرف الغرب الشرق..) خطأ لا يغتفر قط، ومن الطبيعي أن يروا في غرور مطلق (لا أعرف من أين استمدوه؟) إن التيار المقاوم لعنف الغرب وعنصريته وعنجهيته ليس غير خطأ نقع فيه، ومن ثم يصبح هذا التيار يرى في بداية اتصال المجتمع المصري بالعلم والديمقراطية والاستنارة مصيبة تستحق إقامة مأتم لا إجراء احتفالات".

ومعنى هذا أن أصحاب هذا التيار المتفلسف ضد المقاومة لا يرى إلا نفسه هو صاحب التفتح الفكري والتفاعل الثقافي.. إلخ، ويرون غيرهم من المتخلفين الذين يرون – والحال هكذا – في النشرات الصفراء زاد الآخرين.

وبهذا راحوا يصنفون أنفسهم بالمتحريين المتأثرين بالحضارة، ويصفون غيرهم بالمتخلفين المتأثرين بتيار الإسلام السياسي الذي يرفض التحاور مع الحضارة التي تقبع في الشمال.

إن هؤلاء ينسون أننا لا ننتمي بالضرورة إلى الإسلام السياسي بالمعنى الذي يصورونه، وإنما إلى هذا التيار الإسلامي المستنير (الذي أصبح جزءًا من هويتنا الحضارية) والذي يعي الفارق واضحًا بين الحضارة والاستعمار ونعي جيدًا أن الغرب ليس وجهًا لنسيج حضاري واحد متجانس، وإنما هو متعدد الألوان، أكثر الخطوط لفتًا للنظر فيه هي التي تصنع نسيج الهيمنة والعولمة التي نعيش فيها الآن.

إنهم ينسون أن الحضارة الغربية في نهاية القرن العشرين هي الحضارة التي يريد أصحابها أن يصوروها لنا على أنها الحضارة الباقية (ونظرة واحدة إلى فلاسفتهم وموظفي وزارات المخابرات في مؤسساتهم تؤكد هذا: انظر على سبيل المثال صمويل هننتنجون "صراع الحضارات" وفرانسيس فوكوياما في "نهاية التاريخ" وتوفلر في "الموجة الثالثة" و...)

نحن ننتمي إلى الإسلام المستنير الذي يرفض من الآخر الغربي سواء كان فرنسيًا أو إنجليزيًا أو أمريكيًا – في عصر العولمة – هذا الغرب المتسلط لا يرى في الحضارة الغربية غير الحضارة الوحيدة في هذا الكون، وفي الاستعمار الشكل الوحيد لتأكيد العناصر الحضارية ضد البربر أو الهنود الحمر أو السمر كما يريدون أن يرونا. فنحن في وضوح لسنا

ضد الحضارة ولكن ضد الاستعمار، وبشكل أدق، نحن ضد الحضارة حين لا تخلو من بواعث الاستعمار، وضد الاستعمار حين يتوسل بالحضارة.

نحن في الشرق – بجميع طوائفنا – لسنا ضد الحضارة الغربية أو التكنولوجيا أو الآلات الذكية أو الإلكترونيات المتقدمة، لأن هذا كله يمثل – ببساطة – المعروفة، والمعرفة تمثل ببساطة أكثر القوة، والقوة تمثل – ببساطة أكثر وأكثر ما يميز أدياننا التي تدعو إلى ما يصون الكرامة ويحفظ الكبرياء.

نعتذر عن الإطالة ونعود إلى المقاومة عبر عدة أمثلة:

ولأن المقاومة تتخذ صورها أمام عشرات الأمثلة العنيفة ضدنا، فسوف نكتفي الآن بعدة أمثلة وقد نواصل – في موضع آخر – أمثلة أخرى.

تعددت صور المقاومة التي نجدها في عديد من المصادر والمراجع الهامة، سواء في عصر بونابرت أو في عصرنا الآن، ومن ذلك، نستطيع أن نشير إلى مراجعة كتابي الجبرتي المهمين في هذا (عجائب الآثار) و (مظهر التقديس) رغم إعجابه أحيانًا برجال الحملة – وما خلفه نقولا الترك (ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار العربية والشامية) رغم عدم حيدته الكاملة.. وإلى عديد من الكتب في عصرنا ربما كان في مقدمتها كتب عبد الرحمن الرافعي (الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية) ود. ليل عنان (الجزء الأول من كتاب تاريخ الحركة القومية) وكتاب محمد الشرقاوي (الجبرتي وكفاح الشعب)، ولا نستطيع أن نغفل كتاب لويس عوض حول تاريخ الفكر المصري) وكتاب د. زينب عبد العزيز (.. حملة المنافقين الفرنسيين).. وغيرهم.

هذه صورة من الكتب التي سجلت مواقف الشعب المصري المقاوم ورصدته بحيدة كانت المقاومة الشعبية لا تهدأ أبدًا إزاء الوحشية التي تعامل بها المحتل مع أهالينا العزل، وسوف نضرب أمثلة، أحدها حدث بمدينة مصرية، استخدم فيها الفرنسيين العنف بأعلى صوره، فأحد ضباط شهود العيان من هؤلاء يقول مرة:

"– حين دحر المدافعون على جميع الجوانب واحتموا بإلههم ورسولهم فملئوا الجوامع، ذبح الرجال والنساء والكبار والصغار، وحتى الأطفال عن بكرة أبيهم. وبعد نحو أربع ساعات هدأت ثورة جنودنا في النهاية".

وفي مرة أخرى يقول أحد الضباط الفرنسيين أيضًا مصور المشهد كله حين تصبح مقاومة المواطن الأعزل في مواجهة السونكي، نقرأ من خطاب ضابط آخر هذه العبارة:

"ظننا أن المدينة استسلمت وأشد ما أدهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام أحد المساجد.. فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد ولا نبقي على أحد فيه وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال بحد السونكي".

هل لاحظنا تكرار اقتحام الأبواب الموصدة؟

وهل لاحظنا قتل الرجال العزل والنساء بل – أيضًا – الأطفال الأبرياء؟

وهل لاحظنا أن القتال استمر – من جانب المتحضر الغربي – بحد السونكي؟

بل إن الإمبراطور تطور أكثر من السونكي إلى السيف– ونلاحظ أن السلاح الناري في الغرب كانت له الأولوية الآن – وتفصيل هذا في تلك العبارة التي يقول فيها آخر من أنه حين رفضت قرية إمداد الفرنسيين بالبضائع التي طلبوها فماذا حدث، نقرأ فيها:

"فضرب أهلها بحد السيف".

بل يضيف الجندي فرانسوا إلى أهله في أحد الرسائل هذه العبارة البشعة:

"وأحرقت بالنار وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب همجي نصف متوحش".

وهو ما يدعونا إلى السؤال:

من هو الهمجي المتوحش حقًا؟

نترك السؤال إلى مثال آخر، يستخدم فيه نفس الأداة السونكي..

تتردد الأمثلة الكثيرة في فترات محاولة السيطرة على قرى مصر ومدنها، فنعرف – على سبيل الأمثلة التي لا تنتهي أن الفرنسيس قتلوا من المقاومين المصريين في مدينة واحدة كدمنهور نحو ٢٠٠ كما يقول الجنود "قتلاً أو حرقًا".

ويضيف سكرتير نابليون مرة أخرى أنه كان يساق المسجونون إلى القلعة:

"وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثني عشر سجينًا كل ليلة، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل، واستمر ذلك ليال عديدة ومنهم كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلة".

وتستطرد روايات الجنود إلى أهاليهم فنقرأ قتل وحرق واغتيال المئات كل ليلة. ولأن المقاومة مستمرة، فإن السونكي يستمر، ووراءه السيف والحرق والغرق والاغتصاب وكل طرق القتل غيلة التي عرفتها البشرية بأوامر القائد بونابرت شخصيًا أو نوابه، ويعلم دارس التاريخ، كيف خدع بونابرت الإمبراطور الفنان – كما عرفنا – ليرسم لوحة يؤكد فيها رحمته بالأسرى، واقترابه منهم حين فتك بهم مرض الطاعون، فالتاريخ يقول – وهذا مثال آخر

لا أخير – نقرأه في أحد رسائل الجندي بيروس إلى أمه، وفيها يؤكد، كيف اغتيل الجند العربي بعد أن استسلم بعد أن وعد ٣٠٠٠ بالعفو التام، فألقوا سلاحهم وسيقوا حين اقتيد عـــدد هائـــل منهم إلى الشاطئ وقتلوا رميًا بالرصاص وكان قد تم تجويعهم قبل ذلك، متشبثين بأمل الحيـــاة ولكن سرعان ما خاب رجاؤهم ويكمل المواطن الفرنسي – بالحرف الواحد:

"... وصدرت التعليمات للجنود بألا يسرفوا بالذخيرة فبلغت بهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسونكي".

السونكي مرة أخرى نقرأه في أوراق الحملة، وفي موضع السونكي نقرأ هذه العبـــارة القاسية لنفس المواطن:

"وقد وجدنا بين الضحايا أطفالاً كثيرين تشبثوا وهم يموتون بآبائهم".

هذه بعض صور المقاومة، والصور الدامية أكثر للسونكي ضدها، كيف كان يواجـــه من يجرؤ على أن يدافع عن نفسه، والصورتان واضحتان: هذا بطل مصري شرقي والآخـــر جندي فرنسي غربي، إنها الحضارة الغربية المتوحشة في نهاية القرن الثـــامن عـــشر وهـــي الحضارة التي تتغير مسمياتها بين صهيوني أو صربي أو أمريكي في نهاية القرن العشرين.

إنهم جنود الحضارة الغربية على أية حال!

إنها حضارة الغرب

آفاق غير مشتركة.. وكلمة أخيرة

إلى السادة الذين ما زالوا يتحدثون عن الآفاق المشتركة..

نوجه إليهم هذه الصورة الأخيرة.

إلى السادة الذين ما زالوا يتحدثون عن الآفاق المشتركة بحرارة شديدة.

ناسين أو متناسين (سيان) مجازر الحملة وخسائرنا المادية والمعنوية.

إلى السادة الذين يتحدثون عن حضارة الغرب.

وكأننا خارجون عن إطاره حين نطالب بإعادة النظر فيما يطالبوننا به من إعادة الثقة الكاملة في العدو التاريخي ممثلاً في هذا الغزو، الذي ما زال يردد في فرنسا نفسها حتى كتابة هذه السطور الغزو CONQUE.

إلى السادة الذين ما زالوا يتحدثون عن الإسلاميين وأوراقهم الصفراء وانغلاقهم الفكري كلما تحدثنا عن حضارة السونكي والخازوق وجنود الفرنسيين الذين حولوا المدن المصرية في نهاية القرن الثامن عشر إلى (الأحجار السوداء) بتعبير أحد هؤلاء كما جاء في كثير من مصادر هذه الفترة.

إلى هؤلاء وغيرهم، نقدم لهم صورة من هذه الآفاق التي يريدوننا بعنف ألا نلتفت إليها الآن في حين أنهم يلحون في العودة إليها كما عدنا إلى عصر الفرنسيس في مصر نهاية القرن الثامن عشر.

وكي لا نطيل حول هذه الآفاق الذين يدعونا إليها الفرنسيس الغربيون أو الفرنسيون العرب، سوف نشير إلى هذه الصورة المعاصرة، والتي يأتي الدافع لإثارتها أنها كانت آخر هذه الصور التي عرفناها.

وسوف نجهد أنفسنا في عرض هذه الصورة الدامية من وجداننا.

لقد عرفنا منذ الحملة الفرنسية حتى اليوم عديدًا من هذه الصور التي تدمي سواء في مصر أو في الجزائر أو المغرب أو أمام قبر صلاح الدين في بداية هذا القرن وصولاً إلى ما حدث في أزمة الخليج وصحراء النقب (حين أنشأت بدايات النوويات الإسرائيلية في الصحراء الصهيونية؟)

عرفنا أن كثير منها حين راحت تتحصر هيمنة الاستعمار الثقافي والعسكري من أقنعة الفرنسيين فراحوا يحاربون بسلاح الثقافة، فيمنحون الجوائز لعرب المغرب الذين يكتبون

بالفرنسية، أو لبنان، أو يمنحون الكلمات والمؤسسات الثقافية الفرنسية للمارون أو يوزعون مراكزهم العلمية والثقافية وجامعاتهم الفرنسية في شتى أنحاء المعمورة (والعربية في مقدمتها)

ثم عرفنا الكثير من ملامح الفرانكفونية التي يريدون أن نعتنقها وندافع عنها ونترأس هيئتها باختيار د. بطرس غالي، ثم كان أن عرفنا وجه (العلاقات المشتركة) التي دعينا إليها في مصر منذ أن جاء الرئيس ميتران (بالمناسبة فإن أكبر شوارع العاصمة يحمل اسم شارل ديجول منذ هذه الزيارة)، ودعينا للاشتراك في سعي الفرنسيين لتعميم ثقافتهم ولغتهم خاصة في مصر، ثم كان هذا الاتفاق الذي راح عدد كبير من مثقفينا يتحدث عنه بغير حياء (بينما لا يفعلون هم هناك في متحف اللوفر أو معهد العالم العربية و.. بنفس اللغة).

ومنذ هذا الوقت حتى الآن، لا تنقطع الإشارة والإشادة بالثقافة الفرنسية، رغم أن الرئيس مبارك كان أكثر وعيًا من هؤلاء جميعًا، ففي زيارته إلى فرنسا أو زيارة نظيره الفرنسي إلى مصر بعد ذلك لم يذكر شيئًا ما عن هذه الحملة: الغزو أو الحضارة.

أطلت مرة أخرى، لأتوقف عند هذه الصورة الأخيرة التي قدمها لنا (المنافقون الفرنسيس) – على حد تعبير د. زينب عبد العزيز في كتابها الأخير(*) الذي حمل نفس الاسم لنصل إلى هذه الصورة..

الصورة تنقلها لنا وكالات الأنباء، إحداها أمريكية ASSOCIATEDB PRESE والأخرى فرنسية AGENCE FRANCE PRESS وكلاهما – الأمريكية أو الفرنسية – تنقل لنا كيف احتفلت فرنسا مع إحدى عشرة دولة عربية أخرى بالذكرى الخمسين لإقامة دولة إسرائيل في إسرائيل – كما تقول وكالات الأنباء.

لقد شارك في هذا الاحتفال – بعد وقت قصير كان الرئيس مبارك يشهد احتفالات اللوفر بالحضارة الفرعونية- الطائرات الفرنسية ضمن طائرات غربية أخرى (الإيطالية والبريطانية والتركية والأمريكية والسويسرية والأوكرانية والتشيلية والإسبانية..) فلهذه الذكرى التي شارك في صنعها الفرنسيون أنفسهم (وعودوا إلى التاريخ) قامت عدد من الطائرات الفرنسية الحديثة من طراز (الفاجيت) كما تقول الوكالات العالمية لتجري الطلعات الجوية وترسم ألوان العلم الفرنسي في سماء فلسطين المحتلة وفي اليوم التالي، تم نفس الاستعراض من الطائرات الفرنسية – وباحتفاء تغير شكله وإن لم يتغير مضمونه- فوق تل أبيب.

(*) صدر في صيف ١٩٩٨.

كما شارك الفرنسيون بأشكال أخرى في هذه الاحتفالات، وهو ما جعل الصحف اللبنانية تصدر في الأيام التالية وهي تتحدث بحزن شديد عن هذه الدولة الصديقة – فرنسا– التي احتفلت ليس بالذكرى الإسرائيلية لاحتلال الأرض العربية فقط، وإنما في وجود قوات استعمارية أخرى على الأرض اللبنانية والسورية، وكلنا نعلم القدر الذي تبديه فرنسا من الصداقة والحفاوة للبنانيين ومارونيها.

ونحن نعلم – أيضًا – أن قدرًا كبيرًا من المنشآت النووية والطائرات المختلفة – من أشهرها الميراج– زودت بها إسرائيل وأسهمت في ضرب الدول العربية إبان ١٩٦٧ وإن يكن – كما نعلم – بإيعاز مسبق من الفرنسيين التي أثبتت الوثائق الفرنسية التي كشف عنها بعد ثلاثين عامًا من العدوان الثلاثي على مصر أن فرنسا قامت – بطلب من قادة إسرائيل – بتزويد الإسرائيليين بشبكات ضخمة من الحماية الجوية لإسرائيل لحمايتها إبان العدوان على مصر.

نعلم هذا كله ولا ننكره.

ونعلم أنه حتى في حالة هذه الصورة التي نعرضها يتبقى الرمز أقوى من الموقف.

الرمز لما يحدث أقوى من الموقف الذي حدث.

نعلم هذا كله.

ولكننا لا نعلم (وقد يكون لقصور في فهمنا) أن الفرنسيين ما زالوا يلعبون الدور الأكبر – بعد الولايات المتحدة الأمريكية – لتسليح إسرائيل وتأييدها والاحتفال معها بأعيادها كما حدث في هذا الاحتفال الأخير. نقول هذا –عن تأن وإصرار– من اقتناع مؤداه هذه الظواهر التي نرى فيها من الجانب الفرنسي إشادة بالعلاقات المصرية الفرنسية في ذكرى (الغزو) النابليوني في مصر، والتي نرى فيها من الجانب المصري إشادة بهذه الآفاق المشتركة (ما زالت مشتركة) بيننا وبين الفرنسيين.

والآن، ثانية، إلى السادة الذين ما زالوا يتحدثون عن الآثار المشتركة نوجه إليهم كلمة أخيرة ننهي بها هذه السطور..

أن ينتبهوا إلى أن الآفاق التي بيننا وبين الفرنسيين ليست مشتركة، ولم تكن في يوم ما مشتركة رغم أثر الثقافة الفرنسية في التكوين العربي المعاصر.

بيد أن صورة الكلمة تأتي بشكل أكثر تعبيرًا في نهاية كتاب د. زينب عبد العزيز.

وهذا يتحدد في عدة مطالب.

والمطالب ننقلها – عن أستاذة الحضارة.

فلم يعد ليخدعنا ما قبل وما يقال من أن علماء الحملة الفرنسية – على سبيل المثـال- جاءوا لتنويرنا.

كما لم يعد يخدعنا هذه الترهات عن حضارة الغرب التي جاءت – وليس اسـتعمارهم في مناخ شتى.. إلخ.

إن المصادر الفرنسية تؤكد في عديد من الكتابات أن الهدف الـصريح للحملـة كـان لمساعدة الجيش ووضع العلم في خدمة الحرب والحكومة الفرنسية، والعمل على تنظيم وإدارة البلد الذي تم استعماره وذلك وفقًا لقرار نابليون الخاص بإنـشاء المعهـد المـصري فـي ٥ فروكتيدور (٢٢ أغسطس ١٧٩٨).

ومن هنا، نكتب فنقول:

"إنه بدلاً من الشعارات البراقة التي تتشدق بها فرنسا لإغراقنا في ضياع جديد، فليقم علماؤها ومؤرخوها بحصر آلاف القتلى المصريين والفلسطينيين والأتراك الـذين حـصدهم رجال الحملة، وليحصوا عدد المدن والقرى والآثار الإسلامية التـي هـدموها وأحرقوهـا، وليحصوا عدد الآثار المصرية والقبطية والإسلامية وكل المخطوطات والنفائس التي نهبوها وأثروا بها متاحفهم ومكتباتهم وليحسبوا المبالغ الطائلة التي جمعوها غيلة وغدرًا – لا من الضرائب الظالمة التي فرضوها على الشعب المصري فحسب، لتغطية نفقات الحملة، ولا كل ما جنته فرنسا من مكاسب بالتلاعب في دفعها مستحقات الحكومة المصرية من عائد شركة قناة السويس قبل تأميمها ومغالطة عدم تقدير الجنيه الورق بالقيمة الحقيقية للجنيه الـذهب عند ارتفاع سعره إلى سبعة أضعاف وهذه قضية أخرى، وإنما ليضف مـن يـدعون العلـم والحضارة في بلاد الحرية والعدل والمساواة إلى كل ما تقدم من أموال نهبوها الدخل المهول الذي تحصل عليه فرنسا حتى الآن من عرضها كل تلك الآثار التي سرقوها علنًا وفي الخفاء وما زالوا وليسددوا ما عليهم من ديون ثابتة. وأن تدرك فرنسا – إن كانت تبحـث لنفـسها عن مكانة في الشرق في القرن الواحد والعشرين- أن تراجع ماضيها برمته بكل ما فيه من مواقف استعمارية استغلالية ظالمة و..".

والآن، وإلى السادة الذين ما زالوا يتحدثون عن آثار مشتركة نسألهم:

هل ما زالت هناك آفاق مشتركة..

إن الكلمة لن يرد عليها أحد

ملاحق وصور

"الكوربيه دي ليجيبت"

حيثيات محاكمة سليمان الحلبي

ووضعه على الخازوق

باسم الشعب الفرنسي

في يوم ٢٧ بربريال من السنة الثامنة للجمهورية في المنزل الذي يشغله الجنرال رينييه اجتمع، بناء على قرار الجنرال مينو قائد جيش الشرق بالنيابة والذي أصدر البارحة، اجتمع قائد الفرقة رينييه وقائد اللواء روبان ومنظم البحرية لوروي والأمير آلاي أركان الحرب ماتينيه والأمير آلاي أركان الحرب موران ورئيس لواء المشاة جوجيه ورئيس لواء المهندسين برتران ومندوب الحروب رينييه، والمندوب المنظم سارتلون قائمًا بأعمال المقرر، ومندوب الحروب لوبير قائمًا بأعمال مندوب السلطة التنفيذية، ومندوب الحروب بينيه كاتبًا لهذه اللجنة، وذلك للقيام بالمحاكمة النهائية في قضية الاغتيال الذي وقع في ٢٥ من الشهر الحالي على شخص القائد العام كليبر.

عندما اجتمعت اللجنة أحضر الرئيس الجنرال رينيه أمامه على المكتب نسخة من قرار الجنرال مينو سالف الذكر وتلاه على الحاضرين.

ثم تلا محضر الإعدام وتليت جميع الأوراق ومستندات الإثبات والنفي ضد المتهمين سليمان الحلبي وسعيد عبد القادر الغزي ومحمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الوالي ومحمد أفندي.

وعند الانتهاء من تلك القراءات أمر الرئيس بإحالة المتهمين بوساطة المواطن براشويش Brachwich المترجم. وقد أجابوا عليها مصرين على اعترافهم باقترافهم الجريمة المدونة بمحاضر التحقيق السابقة.

ثم سألهم الرئيس إذا كان لديهم أقوال أخرى للدفاع عن أنفسهم فترافع عنهم محاميهم المعين إداريًا، وعند الانتهاء من مرافعته أمر الرئيس حراس المتهمين بإعادتهم إلى السجن.

وسأل الرئيس أعضاء اللجنة عما إذا كان لديهم ملاحظات خاصة، ولما أجابوا بالنفي رفعت الجلسة للمداولة، والقي عليهم الأسئلة كما يلي:

سليمان الحلبي سنه ٢٤ سنة مقيم في حلب متهم باغتيال القائد العام كليبر والمواطن بروتان المهندس المعماري في حديقة القيادة العامة في ٢٥ الجاري. هل هو مذنب؟

ثم أخذت الأصوات ابتداء من الرتبة الأولى، وقررت اللجنة بالإجماع أن المدعو سليمان الحلبي مذنب.

أما السؤال الثاني: سعيد عبد القادر الغزي مقرئ القرآن في الجامع الأكبر المسمى بالأزهر، مولود في غزة ومقيم بالقاهرة، متهم بالاشتراك في الجريمة بأنه كان يعلم بمشروع اغتيال القائد الأعلى ولم يبلغ عنه، وهرب بعد ذلك. هل هو مذنب؟

فأقرت اللجنة بالإجماع إنه مذنب.

ثم وجه الرئيس للأعضاء السؤال الثالث: محمد الغزي سنه ٢٥ سنة، مقرئ في الجامع الأكبر مولود في غزة، متهم بأنه كان يعلم بسرية اغتيال القائد وقد علم به في الوقت الذي كان فيه القاتل في طريقه للتنفيذ ولم يبلغ عنه. هل هو مذنب؟

أجمعت اللجنة على أنه مذنب.

والسؤال الرابع وجه كالآتي:

عبد الله الغزي سنه ٣٠ سنه مولود في غزة مقرئ في الجامع الأكبر متهم بائتمانه على السر الخاص بمشروع اغتيال القائد العام ولم يبلغ عنه، هل هو مذنب؟

قررت اللجنة بالإجماع أنه مذنب

ثم وجه السؤال السادس كما يلي:

محمد أفندي سنه ٨١ سنة من مواليد بورصة متهم بالاشتراك في الجريمة. هل هو مذنب؟

أقرت اللجنة بالإجماع أنه غير مذنب وأمرت بالإفراج عنه.

ثم طلب مندوب السلطة التنفيذية تطبيق العقوبة على المتهمين المذكورين أعلاه والذين ثبت أنهم مذنبون. فأخذت الأصوات على نوع العقاب الذي يناسب كل مذنب، وتليت المادة الخامسة من قرار الجنرال مينو بتاريخ البارحة وحي:

"على اللجنة تطبيق نوع العذاب الذي تراه مناسبًا لمعاقبة المجرم الذي قام بالاغتيال وشركائه.

لقد اختارت بالإجماع نوعًا من العذاب، يستخدم في البلاد بالنسبة للمجرمين الكبار، ويناسب فداحة الجرم، ولهذا فقد حكمت على سليمان الحلبي بأن يحرق معصم يده اليمنى، ثم يغرس في مؤخرته وتد ليخرق أمعاءه، ثم يترك وحيدًا وبه الوتد إلى أن تأتي الغربان والطيور الجارحة لتنهش جسده، وينفذ هذا الإعدام على تل حصن المجمع فور دفن القائد العام كليبر، أمام جنود الجيش وسكان القاهرة المتجمعين لتشييع الجنازة.

وقد حكمت غيابيًا بالإعدام على سعيد عبد القادر الغزي وبمصادرة أمواله لصالح الجمهورية الفرنسية على أن تعلق وثيقة الحكم على الصاري المخصص لتعليق رأسه به،

وحكمت على محمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الولي بقطع رؤوسهم وعرضها في مكان الإعدام. ثم تحرق أجسادهم على أكوام من الحطب، تُعد خصيصًا لهذا الغرض في المكان نفسه. وينفذ حكم الإعدام في المذنبين بالترتيب التالي:

عبد الله الغزي، أحمد الوالي، محمد الغزي ثم سليمان الحلبي.

يطبع من هذا الحكم ومذكرات المقرر باللغات التركية والعربية والفرنسية وتعلق خمسمائة نسخة منها.

وعلى المقرر العمل على تنفيذ هذا الحكم بأسرع ما يمكن.

صدر في القاهرة في اليوم والشهر والسنة عاليه وقد وقعه جميع أعضاء اللجنة وكاتب المحكمة.

تحسنت صحة المواطن بروتان المهندس المعماري وعضو المجمع المصري وهو الذي تطوع بشجاعة فائقة لحماية الجنرال كليبر، ولكن بعد فوات الأوان، وقد ناله من المجرم ست طعنات، منها أربع طعنات خطيرة وقد صار الأمل الآن كبيرًا في شفائه مساء ٢٧ الجاري اليوم (وقد جاءت هذه المذكرة بناء على طلب المواطن ديجينيت كبير أطباء الجيش).

إسرائيل تلميذة بونابرت!

من حق إسرائيل أن تحتفي ببونابرت فهو أول من مهد لها طريق استعمار فلسطين – مهد لليهود الطريق بتخريب سواحل فلسطين وطرد سكانها، كما نقرأ في كتاب "هنري لورانس" عن الحملة الفرنسية في مصر فعندما أوقف الجزار باشا زحف الجيش الفرنسي أمام عكا، وعاد بونابرت مهزومًا إلى مصر، أمر تخريب السهول الساحلية وتطبيق سياسة الأرض المحروقة؛ مما دفع فلسطيني تلك الفترة إلى تركها واللجوء إلى الأراضي المرتفعة.. فجاء اليهود والمهاجرين بعد ذلك يزاحمون أهل البلد في هذه الأراضي المنخفضة، التي كادت أن تخلو من السكان بسبب تخريب بونابرت لها. وينهي هنري لورانس وصفه لما حدث بقوله: "مرور بونابرت على فلسطين كان له عواقب فادحة لمستقبل البلد". فالأمر إذًا أخطر بكثير من الوثيقة المزعومة التي قيل إن بونابرت وعد فيها اليهود بوطن في فلسطين.

إن مجرد قراءة مشاريع بونابرت المستقبلية، التي كان يحلم بها آنذاك، تدل على زيف وثيقة، تعد إحدى الوثائق المزورة، وما أكثرها في جعبة الدعاية الصهيونية. نقرأ في كتاب "لورانس" أيضًا أن بونابرت إذا ما استقر في مصر، أراد الزحف على سوريا حيث ينتظره الدروز والموارنة والعرب، ومعهم الأكراد والأرمن والفرس والتركمان حتى يستولي على القسطنطينية إلى آخر الأحلام التي سيحطمها الجزار باشا بصموده في عكا. نفس الكلام سنراه مكررًا في كتاب "الميموريال" الشهير؛ حيث كان نابليون المنفي يطلق تهويماته في آخر حياته. نلاحظ أن أسماء هذه الشعوب كما كان يقول عنها بونابرت، لا تحتوي على شعب اسمه "اليهود" لسبب بسيط، أن عدد هؤلاء اليهود، في ذلك الزمان والمكان لم يكن يكفي لذكرهم بالمرة. فلا يستطيع بونابرت أن يعد أناسًا لا ذكر لهم ولا وجود، بإنشاء وطن لهم. ولكن تخريبه لفلسطين فتح لهم أرضًا ما استطاعوا الاستيلاء عليها دون فعلته الشنعاء تلك.

وتحتفل إسرائيل بمرور خمسين عامًا على إنشائها. وحسب معلوماتي، أن اسم بونابرت لم يذكر، مع أن دولة إسرائيل لا تدين له بوجودها على أرض فلسطين المغتصبة فقط. فإسرائيل أيضًا، دون أدنى شك، هي التلميذة النجيبة لبونابرت، مستعمر مصر. كان بونابرت أول من أبدع الحجة الأخلاقية لغزوه بلدًا مسالمًا وتحويله إلى مستعمرة لنشر الحضارة فيه. وكانت دعاية صهاينة ما بعد ١٩٤٨ تؤكد دفاعهم الاستشهادي عن الحضارة الغربية في منطقة قالوا عنها أنها نائية ومتخلفة. فكان التعاطف الأوروبي لهم ضد العرب، ومن أهم أسباب مساعدة الغرب لهم. لذا أصبحت إسرائيل مستعمرة يلجأ إلى هذه الحجة الواهية التي ابتدعها بونابرت لتبرر فتوحاته التوسعية.

ولم تكتف إسرائيل باتباع منهجه في التضليل الإعلامي فقط. ولكنها أخذت منه أيضًا وسائل السيطرة الكاملة على إدارة الشئون المحلية في مصر، لا تختلف بتاتًا عن النظام الذي ابتدعته إسرائيل باسم "الحكم المحلي" في فلسطين، ففي خطابات كليبر التي نشرها "هنري لورانس"، نجد البنود التفصيلية لهذه الدواوين، وعلى رأس كل منها ملاحظ عسكري فرنسي، والمسئولون في هذه الدواوين لا يتحركون إلا بإمرة الضابط الفرنسي والاسم "حكم ذاتي"! فالاسم مضلل: "حكم محلي" و "شرطة وطنية"، والحقيقة أن هذه الدواوين، بصريح العبارة، لا هدف له إلا حماية المستعمر وبأمره فهي، أولاً وأخيرًا، مسئولة عن النظام والأمن هذا النظام وهذا الأمن.. لا يعني إلا كبت الثورات ومنع المتمردين من إضرار الفرنسيين.. كما أن الشرطة الفلسطينية تعتبر المسئول الأول عن سلامة المستوطنين اليهود، وعليها أن تحافظ، قبل كل شيء على النظام.. أي نظام؟ النظام الإسرائيلي الذي يتهم السلطة الفلسطينية دائمًا بالتراخي في واجبها الأول؛ أي المحافظة على سلامة الإسرائيليين، وكان بونابرت عبقرية إعلامية، عرف الإسرائيليون كيف يستفيدون أيضًا من دراسته العملية، وهو الذي ورث من ثورة ١٧٨٩ أسرع وسائل الإبادة ليريح باله ويستمر في مخططاته الاستعمارية.

فإسرائيل هي فعلاً الممثلة للحضارة الغربية في منطقتنا، حضارة الاستعمار الدموي وازدراء كل ما يختلف عنها، وصلف القوي الغاشم الذي لا يفهم إلا لغة قوة مهارتها الوحيدة أسلحتها، وفي تغليف أفعالها بالقول المعسول. إسرائيل هي بونابرت العصر الحديث، في أسوأ جوانب شخصيته المدمرة.

أ.د. ليلى عنان
أستاذ الحضارة الفرنسية
جامعة القاهرة

صورة ص ١٥٩

نابليون في الإسكندرية بعد احتلالها

صورة ص ١٦٠

ثورة القاهرة الأولى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨

صورة ص ١٦١

نابليون في عكا يتفقد مرض الطاعون

صورة ص ١٦٢

خط سير الحملة الفرنسية

صورة ص ١٦٣

صورة ذات دلالة لــ نابليون بونابرت كما رآها رسام فرنسي

٧- (أ) كافاريللي

(ب) بلزاك

(ج) جومار

صورة ص ١٦٤

الشهيد سليمان الحلبي

صورة ص ١٦٥

رسم سليمان الحلبي وهو على الخازوق

بريشة ديترتر (Dutertre) رسام الحملة الفرنسية

(ويرى القارئ رءوس الشيوخ الثلاثة)

صور من ص ١٦٦ إلى ص ١٧٢

المؤلف

د. مصطفى عبد الغني

- ولد في القاهرة عام ١٩٤٧.
- رئيس القسم الثقافي بالأهرام والأهرام الدولي.
- عضو العديد من المؤسسات الثقافية في الوطن العربي منها لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة.
- المستشار الثقافي لمجلة (بريزم) بوزارة الثقافة.
- حصل على أطروحة الماجستير عن (طه حسين ودوره السياسي) ثم على أطروحة الدكتوراه في فرع التاريخ الحديث والمعاصر؛ وكان عنوان أطروحته (المثقفون وعبد الناصر ١٩٤٥ – ١٩٦٨).
- شارك في مؤتمرات وندوات عديدة حصل منها على جوائز من جهات ثقافية مصرية وعربية.
- كتب مشروعه الفكري في عديد من المجالات. فكتب في التاريخ والفكر والسياسة والتراجم والدراسات المقارنة والإبداع المسرحي والنقد الأدبي ونقد النقد حتى حصل على جائزة الدولة التقديرية في مصر في (النقد الأدبي)؛ ووصلت أعماله إلى حوالي أربعين كتابًا.
- درست أعماله في جامعات غربية، فسعت (جامعة السوربون) بفرنسا –على سبيل المثال– إلى تدريس كتاباته عن الفكر السياسي على يد الأستاذ جاك برك (بجامعة السوربون) في الثمانينيات. وقررت على طلبة الدراسات العليا هناك.
- له العديد من المقالات والدراسات الهامة في عديد من الدوريات العربية منها: عالم الفكر، والمستقبل العربي، الناقد، فصول، ألقاهرة، البيان.. إلى غير ذلك.
- كذلك حصل على العديد من الجوائز العلمية منها: جائزة وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٨٢، ونقابة الصحفيين المصريين ١٩٨٧، والمجلس الأعلى للثقافة في النقد عام ١٩٩٦، وجائزة الدولة التشجيعية في النقد الأدبي عام ١٩٩٧.. إلى غير ذلك.

نقد أدبي:

- الاتجاه القومي في الرواية: (سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٩٤. (حصل على جائزة الدولة التشجيعية للنقد الأدبي ١٩٩٧): الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩.
- نجيب محفوظ، الثورة والتصوف: هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٤.
- الشرقاوي متمردًا: دار التعاون، القاهرة ١٩٨٧
- قضايا الرواية العربية في نهاية القرن العشرين: المكتبة المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٩.
- نقاد الرواية في نهاية القرن العشرين: الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١.
- نقد الذات في الرواية الفلسطينية: دار سينا، القاهرة ١٩٩٤.
- الغيم والمطر، الرواية الفلسطينية من النكبة على الانتفاضة: القاهرة ٢٠٠١.
- البنية الشعرية عند فاروق شوشة: هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٢.
- عنصر المكان في شعر أبو سنة: هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٣.
- زكي نجيب محمود: سلسلة نقاد الأدب، هيئة الكتاب، ألقاهرة ١٩٩٢.
- الخروج من التاريخ – دراسة في (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف: هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٣.
- المسرح المصري في السبعينيات "ج ١": الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨.
- المسرح المصري في الثمانينيات ج ٢: الطبعة الأولى، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٤: الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.
- في دائرة النقد: المجلس الأعلى للآداب ١٩٨٤.

أعمال فكرية:

- طه حسين والسياسة: دار المستقبل العربي، ج ١، القاهرة، ١٩٧٦.
- تحولات طه حسين: هيئة الكتاب، ج ٢، القاهرة ١٩٩٠.
- طه حسين وثورة يوليو: ج ٣، القاهرة ١٩٨٩.
- المفكر والأمير (العلاقة بين طه حسين والسلطة ١٩١٩/١٩٧٣): هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٧.
- المثقفون وعبد الناصر: دار سعاد الصباح، القاهرة ١٩٩٢. مكتبة غريب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٩.

- مثقفون وجواسيس: دراسة في أزمة الخليج، دار الأمين، القاهرة ١٩٩٧.
- المثقف العربي والعولمة: مهرجان القراءة للجميع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.
- شهر زاد في الفكر العربي الحديث: الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٥.
- الجات والتبعية الثقافية: مركز الحضارة العربية، ١٩٩٨.: الطبعة الثانية، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩.
- الذاكرة المثقوبة – نهب وثائق العرب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩.
- تيارات الفكر المصري الحديث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩.
- مستقبل الجامعة في مصر: د. ت.

تاريخ حديث ومعاصر:

- الجبرتي والغرب، دراسة حضارية مقارنة": هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٥.
- الدور الأمريكي في اغتيال حسن البنا: مدبولي الصغير، القاهرة ٢٠٠١.
- مؤرخو الجزيرة العربية في العصر الحديث: دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨٠.
- المؤثرات الفكرية في الثورة العرابية: هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٢.
- حقيقة الغرب: بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية: مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠١.

إبداع مسرحي:

- الحصار: مسرح شعري، هيئة الكتاب ١٩٨٤.
- الخروج من المدينة: مسرح شعري، الثقافة الجماهيرية ١٩٩٥.
- اللاعب: مسرح شعري، هيئة الكتاب ١٩٩٦.

أدب الرحلة:

- الرحلة إلى الله.
- الشرق شرق والغرب غرب.

تراجم:

- أحمد بهاء الدين – سيرة قومية: دار هلا، القاهرة ١٩٩٦. (حصل على جائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦) بمعرض القاهرة الدولي للكتاب.

- اعترافات عبد الرحمن الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦.
- عمالقة وعواصف: دار الجاد، القاهرة ١٩٩٨.

الترجمة:

- الوداع: ترجمة آخر أشعار أراجون: هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

سيرة ذاتية:

- قبل أن يأتي الزهايمر: ترجمة ذاتية.

معاجم:

- معجم مصطلحات التاريخ العربي الحديث والمعاصر.